كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس
سبورتنج ـ الإسكندرية

القمص
بيشوى كامل
رجل الله

الجزء الثالث

القمص لوقا سيداروس

الكتـــــــــاب: القمص بيشوى كامل رجل اللّه (الجزء الثالث).
إعـــــــــداد: القمص لوقا سيداروس.
الناشـــــــــر: مكتبة كنيسة مارجرجس ـ سبورتنج ـ الإسكندرية.
الطبعـــــــــة: الثالثة ـ يونيه 2009
المطبعـــــــــة: مطبعة دير الشهيد مارمينا العجائبي بمريوط.
موبايـل: **012 2152856** & تليفـاكس:
رقـم الإيـداع: **03 4596452**
الترقيم الدولي: **2004/4912**
I.S.B.N.: 977 – 5005 - 91 - 4

قداسة البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ 117

القمـص بيشـوى كامـل

وُلـــــــــدَ في 6 / 12 / 1931م   سِــيمَ قســاً في 2 / 12 / 1959م

سِـيمَ قمصـاً في 4 / 11 / 1969م   تنـــــــــيَّح في 21 / 3 / 1979م

بِاسم الآب والابن والروح القدس، الإله الواحد. آمين.

المقدمة

أبي الحبيب أبونا بيشوى

هل حقاً مرت هذه السنوات وهكذا بسرعة، خمسة وعشـــرون عاماً على انتقالك إلى الأخدار السمائية؟

ولكن هل يغيب القديسون؟ وهل مثل سائر الناس يُنسَون؟

في الحقيقة يا أبي لم تغب لا عن القلب ولا عن الروح والذهن، فسيرتك حية ومثالك قائم أمام أعين شعبك فلم ولن ينسوك، وتعاليمك المملوءة نعمة ملء السمع، حاضرة عند كل نفس وفي كل بيت.

لقد صرت شفيعاً للكثيرين ممن عايشوك وممن أتوا بعدهم ولم يروك رؤى العين الجسدية.. لقد ملأ عطر رائحة المسيح في حياتك البيعة المقدسة. فأنت مثال الكهنوت المقدس وكمال الأبوة الحقيقيـــة وخادم المسيح بكل الإخلاص. لقد رأينا فيك ما كانت تشتهي النفـــوس أن تراه في طهارة الكهنوت وقداسة السيرة وحنو الأبوة وصدق الدعوة.

فطوباك يا أبي يا من حملت جسد المســـيح بـــالحق والصـــدق وخدمت سيدك بالأمانة والإيمان وأكملت ســـعيك دون أن يعوقـــك عائق لا من الجسد ولا من العالم ولا من حروب الشـــياطين ولـــم يعطل سعيك شيء من أمور هذه الدنيا ولا من حطام هذا العالم الزائل.

زينت النفوس بتعليمك البسيط النقي وتزينت بالفضـــائل التـــي

علّمت الناس إياها فرأوا في حياتك أفضل وسيلة للتعليم، فاقتنعوا بكلامك إذ رأوا صدق مثالك وإنك ممن قال عنهم الرب: "من عمل وعلّم هذا يُدعى عظيماً في ملكوت السماوات".

وجدت نفسي مدفوعاً أن أكتب إلي شعبك ومحبيك إيفاءً لبعض الديون التي طوقت بها عنقي مدى حياتنا معاً، وتعبيراً بسيطاً عن أعمق محبة يحياها الناس علي الأرض في شخص الذي أحبنا.

ولست أقصد أن أسرد قصصاً يتسلى بها الناس ولكني بكل الصدق أود لو أحضر أمام كل إنسان أيقونة حياتك مزينة بزينة القديسين حتى أحبب كل واحد في منهج الحياة في المسيح، وأشجّع كل نفس تتوق للكمال، إذ تجد فيك النموذج العملي للبلوغ إلى ملء القامة في جيلنا الحاضر.

أرجو أن تسامح تقصيري وأن تؤازر أولادك بمزيد من الشفاعة والصلاة.. على أن أشياء أخرى كثيرة لا تقع تحت حصر عشتها خلال السنوات التي سمح الرب لي أن أكون فيها معك.. ملابسات وظروف وأمور روحية وجدت أن أحتفظ بها لنفسي لأن معظمها أشياء شخصية قد لا تفيد القارئ في شيء.

أرجو بالرب أن يكون تذكاركم الدائم سبب بركة وسبب خلاص لكل من يشتاق أن يلتمس بركتكم ويود لو يقتدي بسيرتكم.

مقدمـــة لكتاب

"من أثمار الفردوس ـ الجزء السادس"

من مذكرات القمص بيشوى كامل

أبونا بيشوى..

عشر سنوات مضت، منذ يوم انطلاقك إلى فردوس المسـيح، يومها خلعت هذا الجسد الضعيف الذي كانت روحك القوية تسـتتر فيه، ومهما بلغ الجسد من النقاء والقداسة لكنه لم يزل بالنسبة لعالم الروح كثيفاً، فطالما نحن في الجسد فنحن متغربون عـن الـرب، ننظر كما في مرآة، كما في لغز كما يقول معلمنا القـديس بـولس الرسول.

وها أنت قبل انحلال الجسد بدقائق، رأيـت السـماء كطاقـة مفتوحة، وكأن غلالة الجسد وهى تتمزق، سمحت لبصيرتك الثاقبة أن تنظر من خلالها بأكثر وضوح.

لقد عشت أيام غربتك في يقين الإيمان، ناظراً إلى ما لا يرى، متأكداً بشدة اليقين من رجاء دعوتك ومجد ميراث المسيح. أما فـي ساعة الرحيل فقد تحوّل الإيمان إلى العيان والرجاء صار منظوراً، ورؤية القلب تحولت إلى رؤية العين. وما كنت تنظره كمـا فـي مرآة، صرت تنظره وجهاً لوجـه باسـتعلان. وصـارت كلمتـك الأخيرة: "خلاص انفتحت طاقة في السماء"، صارت هى آخر عظة

في آخر قداس، وكأنك يا أبي بدون مبالغة صرت كارزاً حتى آخر نسمة وجاءت شهادتك هذه كختم للشهادة وصدق الإيمان، وكمال الجهاد الروحي، كمثل شهادة استفانوس رئيس الشمامسة الذي رأى السماوات مفتوحة، وأضاء وجهه كوجه ملاك.

ويومها لم يكن سريرك فراشاً للموت بل كان مذبحاً للحياة أنت المُحب للصليب، والمتعلّق بالمصلوب كان يلذ لك في سني خدمتك الكهنوتية أن تصلي القداس، تقدم الذبيحة على المذبح بكل مشاعرك النبيلة. تتحد بالذبيح وتتسكب على ذبيحة إيمان أولادك.

كانت نفسك بكل خلجاتها تصلي وتقول: "أقدم لك يا سيدي مشورة حريتي". كنت تصليها كمن يقدم مشورة حريته وإرادته وذبيحة ذاته محبة في الذي صُلب على الصليب من أجله، لذلك وأنت تقول هذه العبارة بالذات كنت تقف على أطراف أصابعك، تقولها بكل قوة وبكل خلجات روحك المُحبة للمسيح. وحتى وأنت على فراش المرض لم تكف عن تقديم ذبيحة التسبيح في بذل للذات.

وفي يوم الرحيل.. اجتمعت كل المشاعر المقدسة التي صليت بها جميع القداسات، لتتركز في هذه اللحظة الرهيبة.

كل الصلوات وآلامها، والتضرعات.

كل التأملات العالية والعميقة معاً.

كل بذل الخدمة وسعيها.

كل فرح الروح والتعزية.
كل أعمال الاتضاع والمسكنة.
كل أعمال الرحمة والحنو.
كل ما نعرفه وما لا نعرفه عنك.

بكل هذه تقدمت لتخدم آخر قداس وأنت بعد في الجسد .. الفراش صار لك مثل مذبح حيث أسلمت نفسك وجسدك بيد الرب. تقديم الذات لم يعد بعد مشاعر عبادة فحسب بل صار تقديم جسدك أيضاً كقربان محبة وطاعة في المسيح وللمسيح.

بخور هذا القداس، كان محصلة بخور السنين كلها تنسّمَهُ المسيح كرائحة رضى. احترقت حبات البخور فوق جمر الحب الإلهي إلى التمام.

شموع هذا القداس، كانت حصيلة النور والفرح والحب الذي أضأت به نفوس أولادك. اجتمعت الأنوار كلها إلى شمعة واحدة. احترقت الشمعة عن آخرها في تلك اللحظات. ذابت، أكملت فعل الذوبان الذي كرزت به طيلة الحياة وذابت وأنارت، ولم تنطفئ، ولن تنطفئ ..

شورية القداس دائماً هى العذراء حاملة جمر النار. رفيقة نفسك الطاهرة، وشفيعتك التي أحببتها بالحق. فلمَّا لم تقو يدك على حمل المجمرة ورفع البخور بها. وقفت المجمرة الحقيقية بجوارك، كما وقفت عند صليب ابنها. استقام البخور منها شفاعة ومؤازرة

كما كنت تصلي دائماً: "وعند مفارقة نفسي من جسدي أحضري عندي .." (صلاة الغروب).

يومها ألبستك الكنيسة ثياب التقديس، تماماً كما في قداس احتفالي في أجلّ الأعياد، وهذه سوف لا تخلعها أبداً. فأنت منذ تلك اللحظات، انقطع للزمن أن يكون له سلطان عليك. واتحدت نفسك بالأبدي، الخروف القائم كأنه مذبوح، لتكهن له وتخدمه إلى أبد الآبدين.

فإن كانت غاية المسيحية وسرها العميق هو في الاتحاد بالمسيح والثبات فيه في سر الأفخارستيا فقد بلغت نفسك في تلك اللحظة الأخيرة، كمال الإيمان وغاية الجهاد وقمة الاتحاد بالمسيح، كما في أروع قداس إلهي يتم على الأرض كلها.

نقدم اليوم باقة جديدة من مذكراتك الخاصة. تصير تعزية للنفوس المتغربة في الجسد، كامتداد لعملك الكرازي الفريد، وبرهاناً لصدق حبك للمسيح وخدمة أولاده في كل زمان. راجين أن تمتد صلواتك لتشمل الكنيسة كلها لتنعم بأزمنة ازدهار الإيمان وانتشار الملكوت بشفاعة أم النور القديسة مريم وكل مصاف القديسين وصلوات أبينا الطاهر البابا شنوده الثالث. آمين.

(القس لوقا سيداروس - 21 مارس 1989)

مقدمـــة

أبي الحبيب...

إن قارورة طيبك التي سكبتها عن آخرها عند قــدمي حبيبــك وفاديك الحنون الرب يسوع، ودون أدنى تحفُّظ أو احتيــاط، ودون أن تحسب حساباً لا للصحة، ولا لضــعف الجســد، ولا لخــواطر الناس، وعلل البشر، بل سكبتها بسخاء منقطع النظير حتى انكسرت القارورة، وتصدع الإناء الخزفي الذي كان يخبئ الكنز الروحــاني العالي، هذه القارورة غالية الثمن في عيني يسوع وعيني قديســيه، وما أن انكسرت القارورة حتى امتلأ البيت أكثر من رائحة الطيب، وأفاح ناردين حياتك، أفاح رائحة المسيح فــي أرجــاء الكنيســة. فتعطّرت بعطر عظيم الكرامة.

وثمر السنون وكأن الطيب الغالي يتعتق بعتق الأيام، فيصــير أطيب. وكل النفوس، البعيدين والقريبين يجذبهم عبير طيب سيرتك الطاهرة وحلاوة كلمة الحياة الأبدية في فمك.

إن دم هابيل الصديق صار باكورة الشهادة لله، لأنه "بــه وإن مات يتكلم بعد"، لقد أنسكب دم هابيل على الأرض وفتحت الأرض فــاها وقبلته ولكنه دم شهادة فكيف يموت؟

وأنت يا أبي تخضبت حياتك بدم يتكلم أفضل من هابيل، دم **الصليب، دم المسيح، صار الصليب حياتك، ودم الصليب ينبوعك الذي لا ينضب.**

وصرت أنت مغسول بدم المسيح، صرت طاهراً كالشمس، جميلاً كالقمر. وصار ينبوع الدم الذي كرّست له حياتك عابداً بصلوات وأصوام وأكرمته غاية الإكرام ساجداً في القداسات، ساكباً ذاتك على ذبيحة إيمان أولادك ومتحداً بالذبيحة التي على المذبح بطريقة مدهشة، صار لك ينبوع الدم مصدراً لكلمة الحياة تشهد للمسيح حتى آخر رمق في حياتك.

لقد كنت تصرخ يوم عيد الصليب وقبل انطلاقك بيومين اثنين، تريد أن تتكلم عن الصليب بقوة طاقة جسدك المنهك بالمرض، كانت روحك أقوى من الجسد وشجعت مَنْ حولك وقلت لهم لماذا تخافون الموت ... أنا لا أخاف من الموت، أليس هذا روحٍ الشهداء!!

لذلك لم نكن نقبل كلامك كواعظ أو متأمل، بل كمَنْ سكب ذاته إكراماً لمَنْ أحبه. فاختلطت حياتك بالصليب كواقع حياة يومية، بعيداً عن الكلام النظري والجدال العقلاني.

وها نحن في تذكار انطلاقك، نقدم لأحبائك باقة جديدة من ثمار فردوسك وكلمات شهادة حية عشتها بفرح الصليب وإنكار الذات والاتضاع الواعي.

والواقع إن هذه الكلمات، وقد عثرنا على معظمها في أوراقك الخاصة عبارات مقتضبة، وأشواق قلبك الحار نحو خلاص كل نفس، وخلجات نفسك الوديعة مثل سيدك.

ونحن نقدمها لأولادك كصوت قادم من المساكن العلوية، من حضن إبراهيم، واثقين أنك ترافق هذه الكلمات ببخور الصلاة حتى تمتلئ الكنيسة، يوماً بعد يوم بعطر الروح، وتصير هذه الكلمات تشجيعاً لمَنْ هم بعد في الجسد، أن يحذوا حذوك، ويتشجعوا بمثالك، فيملأوا قارورتهم بطيب الروح، ويسكبوه رخيصاً عند قدمي الصليب، فتزداد الكنيسة ملئاً من رائحة الطيب، وتبقى من جيل إلى جيل صاعدة درجات مصاعد السماء وهى بعد في وادي البكاء.

ليكن تذكارك بركة دائمة للكنيسة، وسبب خلاص وبنيان لنفوس كثيرة ببركة والدة الإله القديسة مريم وكل مصاف القديسين، وطلبات صاحب القداسة البابا شنوده الثالث، آمين

بـذل الـذات

كنت أصلي القداس الإلهي في يوم أربعاء وفي نهاية القـداس حضر إلى الكنيسة أبونا قسـطنطين كـاهن كنيسـة مـارجرجس بباكوس.. سألني عن أبونا بيشوى قلت له أنه لم يحضـر اليـوم.. سألته هل أستطيع أن أقوم له بأي خدمة. حكى لي أنه عنده مشكلة ويريد مساعدة أبينا بيشوى. قلت: "ما هى؟" قال: "في منطقة خدمتي عائلة فقيرة.. أرملة ولها أولاد، تعلّقت إحدى بناتها وهى صـغيرة السن ما بين 15،16 سنة بشاب في الجيش غير مسيحي وهربـت معه وقد أبلغوا الجهات المختصة، والبنت محجوزة قي قسم الشرطة وحاولت الوصول إليها فلم أستطع".

قلت له: "تعال نذهب إلى قسم الشرطة يمكن ربنـا يفـتح لنـا باب". وفعلاً ذهبنا إلى قسم الشرطة ودخلنا عند مأمور القسم، قابلنا الرجل باحترام وشرحنا له الأمر وكان متعاوناً جداً وأحضـر لنـا البنت، حاولنا نتكلم معها ولكنها رفضت الكلام. قال مأمور القسـم: "لأن الشاب مُجنّد فالأمر محوّل إلى النيابة العسكرية لفحص الأمـر وسترحل البنت إلى هناك". شكرنا الرجل وانصرفنا.

قال لي أبونا قسطنطين: "ماذا نفعل؟".. قلت: "نتابع الأمر فـي النيابة العسكرية".. قال لي: "هل تعرف أحداً هناك؟".. قلت: "ربنـا موجود وهو قاضي الأرامل وأب الأيتام".

ذهبنا إلى النيابة العسكرية، وصلت البنت في عربة البوليس.. انتظرنا حتى استجوبوها هى والشاب.. وطلبت مقابلة رئيس النيابة العسكرية، كان رجلاً دمث الأخلاق. شرحت له ظروف البنت اليتيمة وأحوال أسرتها. قال لي الرجل: "إن الشاب متهم بأنه اعتدى عليها وهى تريد أن تشهر إسلامها". قلت له: "أن البنت قاصر والقُصَّر تحت الوصاية ليس لهم أهلية في التصرُّف إلى أن يبلغوا سن الرشد.. لا يستطيع القاصر أن يتصرَّف في أمواله فكيف يتصرَّف في دينه؟".

انتهى الأمر إلى أن حوّلت النيابة العسكرية البنت إلى الطب الشرعي للكشف عليها. كان الوقت قد قارب الغروب. قلت للرجل: "ستذهب الفتاة غداً إلى الطب الشرعي فأين ستقضي ليلتها؟" قال: "في الحجز أو في قسم البوليس".. قلت: "هل هى متهمة بشيء؟".. قال: "لا".. قلت: "لماذا إذن لا تطلقون سراحها؟".. قال: "لا بد أن تذهب إلى الطب الشرعي غداً". قلت: "أنا أتعهد بذلك سآخذها عندي وفي الصباح أذهب بها إلى هناك".. سمح لي رئيس النيابة العسكرية بذلك وكتبت تعهداً على نفسي.

أخذت البنت في سيارتي وذهبت إلى بيتي. حاولت طول الطريق أن أتكلم معها عن محبة المسيح لها وموته على الصليب لأجلها وسألتها عن أسرتها وأمها وأخوتها وشعورها نحوهم. لم تفتح البنت شفتاها بكلمة واحدة كأنها خرساء تماماً. ذهبنا إلى

منزلي.. حاولت أن أقدم لها طعام أو شراب. رفضت تماماً. تحيّرت جداً في الأمر.. اتصلت بأبونا بيشوى جاءني مسرعاً. شرحت له القصة كاملة من أول النهار. حاول أبونا أن يكلمها أو يسألها. ظلت صامتة لا تتكلم حتى الصباح.

في الصباح ذهبنا بها إلى الطب الشرعي في سيارة أبونا بيشوى. وتم توقيع الكشف عليها وأخلى سبيلها من الطب الشرعي حسب تأشيرة النيابة. ولمَّا علمنا أن الشاب غير المسيحي واقف هو وجمهرة كبيرة من الناس أمام الطب الشرعي أحسسنا أن الموضوع مدبر لخطف الفتاة مرة أخرى. خرجنا من باب الطب الشرعي وهممنا بركوب سيارة أحد أولادنا.. اعترضنا الشاب ومن معه ليمنعونا من ركوب السيارة. حاول صاحب السيارة أن يتحرك تعلق الشاب ومن معه بأبواب السيارة المفتوحة محاولاً أن يجتذبني إلى أسفل السيارة بكل عنف وقوة وهكذا في دقائق تأزم الموقف ووجدنا أنفسنا محاطين بمئات من الناس.

وما هى إلا دقائق وإذا بعربة بوليس بها ضباط ومخبرين، أخذوا البنت من أيدينا وأركبوها العربة عنوة وبدأت العربة تتحرك. تشبث أبونا بيشوى بالبنت وقال: "دي بنتي ولن أتركها".. فلمَّا أركبوها أمسك أبونا بمؤخر السيارة وتشبث بها بقوة وقال: "لن أتركها".. عبثاً حاول الواقفون أن يفلتوا يديه من السيارة.. فقد كانت قوة الروح الذي يملأه أعظم من قوى الجسد. بدأ سائق سيارة

البوليس يتحرك وأبونا ممسك بالسيارة، وأسرع السائق وأسرع وأبونا متعلِّق بالسيارة يجري في منظر مؤثر لا يمكن وصفه. فلمَّا ازدادت السرعة بلا اعتبار وبلا تقدير لما كان يمكن أن يحدث انفلتت يدا أبونا من السيارة وكاد يُلقى على الأرض بشدة لولا عناية الله وأيدي بعض أولادنا الشبان الذين كانوا يمرون في ذات الوقت في نفس المكان.

ذهبنا مسرعين إلى قسم البوليس حيث أخذوا الفتاة.. وفتح مأمور القسم محضراً للتحقيق. قضينا بضع ساعات في شد وجذب.. ثم انصرفنا. كان الخبر قد انتشر في كل الإسكندرية أننا تعرضنا لهذا الأمر وأنه أُعتدى علينا وأن أبونا بيشوى كاد يسقط تحت سيارة البوليس... الخ. ذهبنا بعد ذلك إلى البطريركية.. كان وكيل البطريركية يومها هو أبونا تيموثاوس المحرقي (أنبا يوساب أسقف البلينا فيما بعد) قابلنا الرجل وهو منزعج واستفسر منا عما حدث وقد كان رجلاً حكيماً قليل الكلام كثير الأسرار.. كان الوقت قد أمسى. ذهبنا إلى منازلنا. وفي العاشرة مساءً اتصل أبونا الوكيل وقال: "إن سيدنا البابا كيرلس يريد أن يراكما في القاهرة في الصباح".

في الصباح الباكر ذهبنا إلى القاهرة.. فلمَّا علم البابا الحنون بوصولنا فتح بابه على الفور، دخلت إليه، كان وجهه متجهماً على غير عادته، بادرني بالقول: "أما هم فخرجوا فرحين لأنهم حُسبوا

مستأهلين أن يهانوا من أجل اسمه". قلت له: "يا سيدي لم يحدث شيء ونحن بخير بصلاتك".. احتضنني بمحبة أبوية وقال: "هل بيك حاجة يا ابني". قلت له بالصدق: "يا سيدنا نحن بخير". قال: "فين أبونا بيشوى.. فين أبونا بيشوى". قلت له: "في دورة المياه وحالاً يأتي".. فلمَّا دخل أبونا بيشوى كرر له الآية التي قالها سابقاً واحتضنه وقبّله.. فلم أتمالك نفسي من الدموع.. وقلت في قلبي: "هذه هي الأبوة بحق وبلا تكلُّف".

عدنا إلى الإسكندرية.. وفي المساء وقفت أمام الكنيسة عربة جيش وبها ضباط وأحضروا البنت إلى الكنيسة.. ربما كان البابا قد اتصل بالمسئولين وكانوا يحبون البابا ويكرمونه فجاءت الأوامر بتسليم البنت للكنيسة. شكرنا الله وفرحنا وتعزينا أنها لم تُفقد.

بعد عدة أيام تلقيت تليفون من النيابة العسكرية يريدون أن أذهب إليهم لسماع أقوالي لأنهم اعتزموا أن يعيدوا التحقيق في الحادث ويحققوا مع الشاب في التهم الموجهة إليه من جهة الاعتداء علينا وخطف البنت.. ذهبت في الميعاد المحدد.. قابلني رئيس النيابة العسكرية (العميد حسن وصفي) وفتح المحضر وسألني عما حدث. سردت له الوقائع كما عشتها ساعة بساعة. سألني عن تفصيل ما فعل الشاب المجنّد.. جاوبته. سألني بالأكثر هل تستطيع أن تمثّل لي كيف تصرف. ففعلت ولمَّا انتهى من التحقيق وضم الأوراق.. جلس يتحدث إليّ في مودة وسألني: "هل تعتقدون في

أبونا بيشوى أنه رجل قديس؟.." قلت: "نعم". قال: "بالحقيقة هو كذلك، بل أنه أفضل مما تعتقدون فيه." قلت: "كيف كذلك؟.." قال: "كان أبونا بيشوى عندي هنا بالأمس.. وأخذت أقواله فيما حدث وعبثاً حاولت أن استفسر عن الاعتداء الذي وقع عليكم. لم يجبني بشيء. ألححت عليه أن هذا الأمر لازم للتحقيق رفض تماماً.." وقال: "إنه شاب غلبان زي أولادنا ولم يفعل شيء.. وأنا مسامحه من كل قلبي." أصابني خجل كبير مما سمعت.. وشكرت الرجل وانصرفت.

ذهبت إلى أبونا بيشوى في البيت وعاتبته قائلاً: لمَّا ذهبت إلى النيابة العسكرية بالأمس لماذا لم تخبرني.. قال: "مفيش حاجة." قلت له مداعباً: "لقد جعلت منظري مزري عندما قارنوني بسلوكك. كان المفروض أن تتبهني لكي أعمل زيك." فضحك ببساطة وسألني عما حدث فقلت له كل شيء. فقال: "المهم أن البنت الغلبانة دي ربنا لم يسمح لها بالهلاك ربما من أجل أمها الأرملة."

في الرعاية والتدبير

كان اهتمامك الأول والأوحد هو خلاص نفوس أولادك وتمتعهم بالمسيح وشغلك الشاغل هو الإنجيل كما تُعلِّمَهُ الكنيسة وممارسة الأسرار بكل وقار. ففتحت أعين شعبك على غنى كنوز الكنيسة وعمقها فعاش أولادك حياة السماء على الأرض.

ففي مختلف المواسم الكنسية كان تمتعك بطقس الكنيسة وشرحك له لا كمعلومات بل كحياة كفيل أن يجعل العبادة في الكنيسة متعة لتذوق الحياة الأبدية. فقد حوّلت الاحتفال بعيد النيروز مثلاً لاحتفال بجميع الشهداء الأبرار. فكنت في عشية عيد النيروز تزف أيقوناتهم وأنت متهلل بالروح ترفع أمامهم البخور الكثيف فتمتلئ الكنيسة برائحته إلى العنان وكان شعبك يشعر فعلاً بسحابة الشهود المحيطة بنا لنطرح عنا ثقل نير الخطايا ونحن مؤازرون بصلوات الشهداء.

وفي ليالي كيهك كان السهر في التسبيح يحلو لك وأنت متهلل بالروح ترتوي من النعمة التي في سر التجسد الإلهي الذي أجزله الرب لنا بكل حكمة وفطنة. ولا عجب فأنت أول كاهن في جيلنا يكرم السهر والتسبيح لا بتعليم الكلام بل بالممارسة.. فأنت أول كاهن يسهر في التسبيح حتى الصباح ويحوّل سهرات كيهك إلى سماء بالحقيقة.

وقد صرت قدوة للكنيسة كلها فانتقل حبك للتسبيح إلى كافة كنائس الكرازة. لأنه قبل ذلك كانت ليالي كيهك مقصورة على من يحضرها من العرفاء وبعض الشمامسة وقليل من الناس وكان يتخللها أكل برتقال ويوسفي وشرب مشروبات مثل القرفة.... الخ.

أما الأعياد فكم كانت بهجتها الروحية التي تذوقتها عاماً بعد عام تنعكس على كل شعبك إذ رأوك في صلاة قداسات الأعياد متهللاً بالروح مكللاً بالجلال. وكانت كلمات النعمة على فمك في الأعياد قمة الشهادة لإيمانك الصادق.

أذكر أننا في عيد القيامة في إحدى السنوات حضر العظة المدّعي الاشتراكي وكان يومها مرشحاً لمجلس الشعب، وكنت تتكلم عن قيامة المسيح بقوة عجيبة فتأثر الرجل تأثراً بالغاً وقال: "لم أسمع قط في حياتي كلاماً بهذا العمق وهذا الجمال".

وقد علّمت أولادك في صباح كل عيد أن يحضروا إلى الكنيسة في الصباح الباكر وكان يجتمع بالكنيسة قرابة ألف طفل مع خُدَّام مدارس الأحد وكنت بقدرة فائقة تكلم الأطفال وتحكي لهم حكاية العيد ببساطة الطفولة وبراءة الكلام العذب وكان العجيب في الأمر أن الأطفال وهم مشدودون إليك ينصتون إليك بكل حواسهم. بل بالأكثر من ذلك أن كثيراً من الكبار والآباء كانوا يتمتعون بذلك ويتأثرون به.

وقد قلت لك يوماً من أيام العيد بعد أن فرغت من كلامك مع الأطفال.. قلت لك أرجوك تتكلم مع الكبار في العظات بهذا الأسلوب

البديع إنه أبلغ من كل العظات التي تقولها بكلام الكبار. كنت تسقي أولادك اللبن العقلي العديم الغش لكي ينموا به في المسيح.

ومن حضر معك أسبوع آلام مخلصنا هل ينساه؟ ومن سمعك متكلماً عن آلام الذي أحبنا وأسلم نفسه لأجلنا.. يظل يذكر هذا مدى الحياة.

أذكر أنك بعد أن رجعت من الرحلة الأولى للعلاج في لندن وكنت بعدها تعالج بالعلاج الكيماوي وكنت هكذا ضعيفاً جداً وجسدك منهك بالمرض والأدوية شديدة المفعول.. حضرت إلى الكنيسة في يوم جمعة الصلبوت.. وكنت جالساً صامتاً تشارك في الصلوات بقلبك وروحك ونظرك المثبت في الصليب. وفي الساعة السادسة توسلت إليك أن تتكلم كلمة بسيطة.. فاعتذرت لأنك غير قادر ولكنني ألححت عليك وقلت لك ولو عشرة دقائق وأنا سأعظ في الساعة التاسعة.. فوقفت وتكلمت بنعمة فائقة من جسد منهك تكلمت عن صمت يسوع أنه لم يفتح فاه بحسب نبوة إشعياء واشهد أنني لم أسمع في حياتي ما هو أعمق من تلك الكلمات.

حقاً إن العبادة في الكنيسة واكتشاف كنوز الروح المذخرة لنا في أعيادها وألحانها ومناسباتها وأصوامها وأعياد قديسيها وتدبير الأسرار كلها تحتاج لمن يحياها بحق ويقدمها مُعاشة فيعشقها الناس إذ أنها هي السماء بعينها.

في الإدارة والأمور المالية

إن أكثر ما تعاني منه كل كنيسة هو الخلاف والنزاع القائم بين الكاهن ولجنة الكنيسة من العلمانيين الذين يوكل إليهم تدبير الشئون المالية في الكنيسة.

فنحن نسمع قصصاً لا حصر لها وانقسامات وتحزبات.. شيء هدام ومحزن للنفس. أما أنت فعلى عكس ذلك تماماً عشت يا أبي.. فلجنة الكنيسة هم أولادك الذين سعيت لخلاص أنفسهم وعلّمتهم المسيح.

كان اجتماعك بهم كلما دعت الضرورة لذلك ولا سيما خلال سنوات بناء الكنيسة اجتماعاً روحياً كله صلاة وروح.. كنت حريصاً على وقتك الذي هو أثمن من كل شيء فكنت في عجالة ترد على أسئلتهم من جهة تدبير أو شراء أو أعمال المقاول... الخ. ولم يكن الاجتماع يمتد إلى أكثر من ساعة كنت بعدها تنصرف بحركتك النشيطة إلى خدمتك الباذلة.

وقد علّمت أولادك أن أموال الكنيسة ليست مادية ولكنها عطايا روحية مقدمة من أولاد الله لحساب المسيح. ونحن مؤتمنين على إعطائها لمستحقيها وتوجيهها توجيهاً صحيحاً لخدمة المسيح على قدر استطاعتنا.

ولمَّا رأوا فيك حبك للفقراء وخدمتك لهم وكيف تعاملهم بكل اللطف والحنو تعلّم بعضهم هذه الفضيلة العظمى. لم تكن أموال الدنيا تشغلك بحال من الأحوال إذ قد انفتحت أمامك كنوز السماء.. فكان العطاء المادي بالنسبة لك شيء بسيط إذ قد أعطيت نفسك، وجسدك بذلته خدمة في الذي أحببته.

ولم تكن تكف عن العطاء حتى آخر قرش في جيبك. كنت لماحاً حساساً بالروح لاحتياجات أولادك ليس الفقراء بل كل واحد في ظروفه.

في إحدى المرات في طريق عودتك من الولايات المتحدة مررت بإنجلترا واتصلت بأحد أولادك من الذين كانوا يدرسون هناك (د. عيسى جرجس) وسافرت له من لندن إلى حيث كان يقيم مسافة ستة ساعات بالقطار وهناك افتقدت كل أولادك في المنطقة وآزرتهم بمحبتك ووجودك. وصليت لهم وعند انصرافك دفعت مبلغ عدة آلاف من الدولارات في يد ابنك الطبيب وعبثاً حاول أن يقنعك أنه غير محتاج وأن ظروفه هو وزوجته على ما يرام.. قلت له: "أنت في غربة وأنا غير محتاج لهذا المبلغ".. وقلت له: " يا عيسى أنا أغنى إنسان في الدنيا لأني أشعر أن كل أموال أولادي هى في جيبي".. حقاً لقد ملكت على قلب أولادك بالمسيح فكانوا مستعدين أن يضعوا نفوسهم عنك بحب بلغ حد الخيال.

السعي وراء الخروف الضال

قرأت الكلمة التي ألقاها الدكتور عيسى جرجس سكرتير المجلس الملي السكندري في عشية عيد جلوس قداسة البابا شنوده الثالث - يوم 12 نوفمبر 2003 - وهأنذا أسجلها هنا للقارئ بنصها:

"سيدي صاحب القداسة البابا شنوده الثالث..

آبائي الأجلاء أصحاب النيافة المطارنة والأساقفة..

آبائي الكهنة والرهبان الموقَّرين..

إخوتي وأخواتي في المسيح يسوع..

أهنئكم يا أبي من كل القلب بعيد جلوسكم السعيد على العرش الروحاني الذي لناظر الإله القديس مرقس الرسول كاروزنا العظيم. وأطلب لكم طول الأيام التي فيها تسوسون قطيع المسيح وتقطعون كلمة الحق باستقامة الروح.

إن تاريخ كنيستنا المجيدة يسجل باهتمام شديد سير الآباء البطاركة حافظي الإيمان الأرثوذكسي ورعاة قطيع المسيح والساهرين على خلاص كل نفس. وقد تميّز كل عصر بوجود شخصيات قديسة صارت كعلامات بارزة على الطريق الروحي وأضاءت كأنوار الكواكب في سماء كنيسة الله وستظل تضئ إلى أبد الدهور كقول دانيال النبي عن الفاهمين والذين ردوا كثيرين.

واليوم ونحن نحتفل بعيد جلوسكم الثاني والثلاثين نقول بملء الفم أن عصركم قد ازدان بطغمات من الآباء الأساقفة العلماء والكهنة الغيورين والشمامسة الأتقياء والأراخنة محبي المسيح.. شيء لا يُحصى. ولكني في هذه العجالة اخترت من بين هؤلاء أبرز الآباء الكهنة في حبريتكم المجيدة وهو أبي المتنيح القمص بيشوى كامل خادم كنيسة مار جرجس باسبورتنج وملاكها الأول.. وهو من أحب وأعز أبنائكم أنتم وكافة الأحبار الأجلاء، بل صار مكرماً لدى الكنيسة كلها وقد مضى على نياحته زهاء ربع قرن. والظاهرة الفريدة التي لمستها الكنيسة في حياة أبينا بيشوى هى غيرته النادرة على خلاص النفوس وسعيه الدءوب في رد النفوس التي كانت ترتد عن الإيمان. فكم جاهد حتى النفس الأخير بغيرة متقدة وحب جبار وصلوات وأصوام ودموع وهو يسعى وراء الخروف الضال وقد ناله من جراء ذلك تعب وإيذاء واضطهاد وتهديد.. فلم يحتسب لشيء ولا كانت نفسه ثمينة عنده حتى أكمل سعيه في طلب الضال ورد المطرود وجبر الكسير.

بل أنه في مرات كثيرة كان يلازم الفراش مريضاً حينما يضل أحد الخراف ويترك حظيرة الإيمان. فصار بذلك السلوك منهجاً للأبوة الروحية وكمل فيه القول: "من يضعف وأنا لا أضعف من يعثر وأنا لا ألتهب". وفي ضميري يا سيدي أن أبونا بيشوى كان مؤازراً من روحكم كأب الآباء وراعي الرعاة الساهر على قطيع

المسيح فكان دوماً يجد فيكم المثل الأعلى والسند والعضد والمؤازرة في الروح والنفس كليهما.

والكنيسة كلها لا ولن تنسى اهتمامكم بالنفس الواحدة. لن تنسى تأثركم حتى غلبكم البكاء في جلسة المجمع المقدس سنة 1980 وأنتم تسردون قصة إحدى البنات التي كان الشيطان قد اقتنصها في فخاخه فتركت الإيمان مغلوبة على أمرها.

واليوم يا سيدي أرى أننا قد انشغلنا بمشروعات وأبنية وأنشطة كثيرة وأنواع اهتمامات تثقل بها كثير من الآباء الكهنة والخُدَّام. وفي هذه الزحمة ضاعت نفوس كثيرة وارتدت عن الإيمان إذ أحبت العالم الحاضر ولم تجد من يقوّم الأيادي المسترخية ولا الركب المخلّعة فاعتسف الأعرج بدلاً من أن يبرأ.

* فهل يصير احتفالنا اليوم يا سيدنا وحولكم جميع الآباء الأساقفة والآباء الكهنة إذكاء من جديد لروح السعي وراء الخروف الضال الذي هو صُلب اهتمامكم وشغلكم الشاغل منذ فجر شبابكم.

* وهل تأمرون بإقامة صلوات خاصة وأصوام وقداسات لأجل هذه النفوس لكي يردها الرب ثانية إلى حضن الكنيسة وحظيرة الإيمان.

* وهل تخصصون اليوم جماعة من الآباء الغيورين أن يقوموا ساهرين على هذه الخدمة كمسئولين أمامكم في البحث والمتابعة

على غرار اهتمامكم بخدمة الفقراء والمسجونين والمعوقين وكل الفئات التي حظت باهتمامكم الرسولي.

* وهل يُطلب من الآباء كهنة الكنائس أن يقدموا تقريراً عن كل الحالات التي تقع في دائرة خدمتهم وماذا تم فيها وإلى أين انتهت وإن احتاج الأمر إلى معونة كهنة آخرين مختبرين أو أحد الآباء الأساقفة أن يمدوا أيديهم لاستكمال السعي لرد الخروف الضال.

* وهل تُدرس هذه الحالات بعمق لمعرفة أسبابها إن كانت خلافات أسرية أو حالات طلاق أو سعي وراء مال أو منصب أو خداع شهوة وخطايا أو تقصير في الرعاية والتعليم إلى آخره. ومنها نستطيع أن نستخلص نتائج تقود إلى اهتمام أفضل وعلاج أنجح.

أنا أعلم يا سيدنا علم اليقين حبكم لجميع أبنائكم لا سيما الضعفاء منهم وتقديركم للنفس الواحدة كم هى ثمينة وأعلم أنكم تضعون خلاص كل نفس فوق كل اعتبار وأنها أغلى من كل ما على الأرض لأن الذي اشتراها بدمه هو الذي حملّكم بصليب المسئولية هذه. وأعلم علم اليقين أن فرحكم بخاطئ واحد يتوب أكثر من فرحكم بجميع المشروعات والأنشطة.

بهذا يصير يوم احتفالنا بعيد جلوسكم السعيد اضطراماً لروح الخدمة النارية ومد يد المعونة لنفوس أُبتلعت من الموت.

دُمتم يا سيدنا راعياً ساهراً متمسكاً بقول الرب الذي طالما كررتموه لأبنائكم الكهنة: "خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها وأنا أدعوها بأسماء".

وكل عام وغبطتكم بموفور الصحة وكامل السلام".

هكذا صرت يا أبي في ضمير الكنيسة أنك المثل الذي يُحتذى به في سعيك وراء النفوس الشاردة – فعلاً كنت بالنعمة التي فيك ترد الضالين – الذين صغرت نفوسهم وهم في دوامة العالم والشهوات قد نسوا حب الذي أحبهم فكادوا يلقون الصليب عن كاهلهم. فكنت تنير أبصارهم وتفتح عيونهم وقلوبهم فيعودون إلى الحظيرة بتوبة صادقة وكانوا يسببون سروراً للكنيسة كلها.

وأذكر أنه في أول مرة أرى من ينكر الإيمان جهاراً كان ذلك في سنة **1968** حيث كانت مديرية الأمن قد أخطرت البطريركية بأن أحدهم قرر إشهار إسلامه. وقد كان النظام أن البطريركية ترسل إلى مديرية الأمن من تراه من الكهنة لكي يسدي إليه النصائح ويبحث مشكلته فإن انتصح وعاد إلى رشده وإلا فإن الكاهن يكتب في سجلات المديرية أنه قُدمت له النصائح ولم ينتصح. يومها ذهبنا معاً أبونا بيشوى وأنا.. وقابلنا شخصاً غريباً من منطقة بعيدة عنا.. جالس في مديرية الأمن. سلمنا عليه فلم يجب.. حاول أبونا بيشوى أن يكلمه فلم يتكلم. قال له أبونا: "أنت عارف كلام المسيح الذي قاله: من ينكر المسيح قدام الناس ينكره

المسيح أيضاً قدام ملائكة الله". فرد الرجل بجفاء وقال: "أنا عـــاوزه ينكرني". فكتب أبونا في سجل المديرية: قُدمت له النصـــائح ولـــم ينتصح. ونزلنا على سلم المديرية كدت أسقط من الحـــزن وكانـــت دموعي تجري بلا ضابط.. ربت أبونا على كتفـــي مهـــدئاً وقـــال: كثيرين تحت تأثير الظروف الضاغطة أو الشهوات وبســـب عـــدم معرفتهم وعدم الرعاية الكافية يقعون في هذا الفخ ولكن ربنا مـــش بيسيبهم.

مرت على هذه الحادثة ربما ثلاث سنوات.. وفي زحمة الحيـــاة كدت أنسى هذه الحادثة .. وفي يوم من الأيام رأيت أبونا مقبلاً إليَّ وهو متهلل وهو يحتضن بذراعه رجلاً وقال لي: "أنت فاكر الراجل ده.." قلت يا ربي يسوع.. تذكرت الرجل.. هذا الذي قابلناه في ذلك اليوم الكئيب في مديرية الأمن. قلت: نعم يا أبي أنا أتذكره قال لـــي أبونا هأنذا قد أحضرته لك لكي لا تحزن ولا تبكي عليه.. كم فرح قلبي إذ وجدت نعمة المسيح على وجه هذا الرجل المسكين.

يومها قص عليَّ أبونا قصة مأساة هذا الرجل وكيف عمل لـــه الشيطان فخاً من أناس أشرار فأجبروه على فعلته ولكن الله سهّل له طريق النجاة كما قيل: "الفخ انكسر ونحن نجونا". وجاء به من أقاله من عثرته إلى أبينا بيشوى فصنع معه معروفاً مـــن جهـــة تســـديد ديونه وأعاده إلى حضن يسوع.

طوباك يا أبي يا خادم الضعفاء ومنجّي النفوس من فخ إبليس.

صورة مُشرِّفة للكهنوت

لقد رأى الناس فيك في بداية خدمتك الكهنوتية صورة مشرفة على غير ما اعتاد الناس أن يروا في الآباء الكهنة في جيلهم.

لقد عرف الناس في ذلك الوقت الكاهن هو الذي يصلي القداس ويقرأ العظة المكتوبة إذ كان كثير من الآباء لا يعظون. ويحتاج الناس إلى الكاهن في الأفراح والجنازات والقنديل في أيام الصوم الكبير كعادة وبركة.. إلى آخر هذه الأمور. وكان كثير من الشعب يُعثر في الآباء الكهنة من حيث بعض التصرفات والمعاملات لا سيما من جهة المال.

قلت لي في أيام خدمتك الأولى حدث أن طلبت إليك سيدة تقية أن تزورها لتصلي لها صلاة بركة أو قنديل في منزلها. فذهبت وصليت لها. فلمَّا انتهيت من الصلاة قدّمت لك السيدة عشرة جنيهات فأخرجت دفتر التبرعات وكتبت إيصالاً بالمبلغ وأعطيتها. فشكرتك واستأذنت فدخلت إلى حجرتها وعادت بعشرة جنيهات أخرى فكتبت لها على الفور إيصالاً آخر فترجتك السيدة الفاضلة أن تنتظر دقيقة أخرى وعادت ومعها عشرة جنيهات أخرى ولكنها في هذه المرة انحنت تقبّل قدميك متوسلة إليك أن لا تكتب إيصالاً آخر. وقالت لك: يا أبي أنا أعرف أنك لا تأخذ فلوس وأنت غير محتاج إلى شيء من العالم ولكني أريد أن تبارك أولادي فتأكل أنت

شخصياً من تعب أيديهم. وكنت يا أبي في رقة مشاعرك لا تخيّب رجاء أحد ولا تصد إنسان فقلت لها إن الكهنة الآن يتقاضون مرتباً. فلم تدعك السيدة أن تكمل، بل قالت صدقني يا أبي أنا أعلم كل ذلك ولكن اقبل هذه المحبة من عبدتك.. فباتضاع شديد وخجل قبلت.

هذا ما رآه الناس فيك منذ الأيام الأولى. حقاً كنت مثالاً للكاهن العفيف الغني بالمسيح وإنه فضة أو ذهب أو ثياب أحد أو كل ما كان في حوزة أولادك لم تشته كقول الرسول، بل على العكس كان يغمرك فرح شديد إن أنجح الرب طرق أحد أولادك وحاز غنى أو ثروة أو مركز في العالم.

مع أبونا عبد المسيح الحبشي

أبونا عبد المسيح الحبشي هو راهب متوحد قديس عاش متوحداً في قفار تبعد عدة كيلومترات من دير البراموس سكن فيها ما يقرب من أربعين سنة عائشاً حياة الصلاة والقداسة كآباء القرن الرابع وكان شديد النسك مهوباً ومُبكِّتاً شديداً للخطاة.. وشهد عنه كثيرون أنه كان كالآباء السواح. فلم تكن للمغارة التي يسكنها باب أو أي نوع من تأمين الحياة ضد مخاطر البرية القفرة وما فيها من وحوش وعقارب وثعابين ولكن الرب كان حافظاً له كشاهد لله ضد العالم وكل ما في العالم. فلم يقتنِ مدى حياته شيئاً من حطام الدنيا وكان يلبس ثوباً واحداً خشناً ويلف نفسه ببطانية. واحتمل على مدى الأعوام الطويلة وحشة الوحدة وحر الصيف الشديد وبرودة ليل الشتاء القارس. ولم يكن في مغارته سرير أو مرقد ولا شيء يذكر.

وقد وهبه الله نعمة معرفة الأسرار وقد صنع آيات عديدة. ثم عرف بالروح أن أيامه قد كَمُلَت فنزل من مغارته قاصداً أن يزور دير القديس أنطونيوس بالجبل الشرقي، ثم يزور كنيسة السيدة العذراء بالزيتون، ثم يزور البابا البطريرك ثم يرحل إلى أورشليم. ومن هناك ينطلق إلى أورشليم السمائية.. كانت هذه هي الخطة التي ألهمه الروح بها في نهاية مطاف غربة هذا القديس في هذا العالم.

في سنة **1976** كنا في الصباح في الدار البطريركية أثر استقبال أحد الآباء في مطار القاهرة. كنا أبونا بيشوى وأبونا متياس روفائيل وأنا والمهندس ألبير نوار. وصار رأي أن نأخذ بركة أبونا عبد المسيح الحبشي وكان يومها موجوداً بالبطريركية في حجرة صغيرة بالدور الأرضي.. قرعنا بابه ففتح لنا ثم دعانا للدخول وفرش لنا ورق جرائد على الأرض فجلسنا. ثم سأل بلغته العربية غير الواضحة.. "إزاي الحال".. فأجبته ببساطة قائلاً: "الحمد لله".. وإذا به يضربني بيده على ظهري ويقول: "حمد لله إيه.. أنت شمشون.. كيف بدأ وكيف انتهى.. أبو مقار قال حمد لله؟".

لم أفهم ماذا يقصد الرجل أو ماذا قلت أنا؟ فبادره أبونا بيشوى بقوله عني: "يا أبونا بيقول الحمد لله أنا خاطئ". فسُرّ الرجل بذلك. وقد عرفت أنه ربما فهم أنني أقول الحمد لله أنا خلصت أو قد صرت كاملاً.. وكان يقصد أن الجهاد لا بد أن يكمل ولا يطمئن الواحد إلا إذا وصل إلى حضن المسيح ودلفت رجله أعتاب السماء.

فالقديسون لم يكونوا يفتكرون في أنفسهم شيئاً ولا يقبلون المدح كمثل القديس مقاريوس حينما جربه المُجرِّب وهو يحتضر وقال له: طوباك يا أبو مقار قد أكملت.. فقال له: لم أكمل بعد.. فكان جهاده إلى النفس الأخير.

التفت أبونا عبد المسيح إلى أبينا بيشوى وسأله قائلاً: هل أنت راهب؟ فرد أبونا عليه بالنفي قائلاً: لا لست راهباً. فتفرس فيه أبونا عبد المسيح وقال: لا.. أنت تمام.. تمام.

لست أدري ماذا رأى في أبينا بيشوى ولكنه امتدحه وأحبه هكذا. مع أن الرجل كان شديد التبكيت ولا سيما لرجال الكهنوت فكان يبكتهم على الملابس الناعمة أو الغالية الثمن أو سُمنة الجسد أو الروائح والعطور إذا رأى أحداً من الأكليروس فيه شيء من ذلك فكان مثل يوحنا المعمدان. وكثيراً ما بكّت الأساقفة الأثيوبيين الذين كانوا يحرصون على زيارته عالمين أنه رجل بار وقديس وهم يعرفون أنه كان ينتسب إلى أسرة الإمبراطور آنذاك.

ثم في تمام الساعة التاسعة صباحاً إذ أبونا عبد المسيح يلتفت ليقول الساعة كام.. الساعة كام.. باراقليط. تعجبنا فقد تبلورت حياته على مواعيد الصلاة وأوقاتها.

هكذا شهد ناسك هذا الجيل وقديسه لحياتك دون أن يعرفك معرفة الناس بل بروح الله الذي فيه قد أحس بالحياة الفُضلى التي تمتعت بها وعشتها. حقاً يا أبي كانت نعمة الله حالة عليك.. طوباك.

مارمرقس بلوس أنجلوس

تكبدت أتعاباً كثيرة في ذهابك إلى هذه البلاد البعيدة.. كانت الظروف التي أحاطت سفرك ظروف غريبة وفيها عوامل كثيرة تبدو مخيفة. ولكن يد الله تحوّل كل شيء للخير.

كان سفرك مزعجاً لنفوس لا حصر لها تعلقت بك وأحبت المسيح فيك. وكان بكاء كثيرين ونحيب ألوف، الكل يبكي بلا وعي.. ولم يكن أحد يعلم أن الله أرسلك بعيداً لكي تكرز باسمه وتبني نفوس متغربة تحتاج إلى من يعبر إليها ويعينها.

هناك في لوس أنجلوس وجدت أوائل من هاجر من الأقباط وكانوا قليلين لا يزيد عددهم عن **200** شخص مبتدئين لم يكن قد مضى على بداية الهجرة سوى سنوات قليلة.. استضافك دكتور فهمي عطاالله وهو أول من هاجر إلى الولايات المتحدة من المصريين عموماً وهو دكتور نفساني.. وكان يملك عمارة بها شقق. فأعطاك شقة صغيرة جداً.. تصلح للعُزّاب.. السرير فيها يُضم إلى تجويف في الحائط مثل الدولاب في النهار فتصير الحجرة كصالة صغيرة للمعيشة.. ثم يُفرد السرير في المساء فتصير كحجرة نوم. وسكن في ذات العمارة بعض الشبان الذين تعرفوا عليك منذ وصولك إلى مطار لوس أنجلوس وتعلقت نفوسهم بك.

فرحوا بوجودك وكانوا يومها يصلون في كنيسة السريان الأرثوذكس. فتعرفت على كاهنها وصرت تصلي مع أولادك هناك.

وبعد شهرين كنت قد وضعت في قلبك شراء كنيسة رغم أن أولادك كانوا قليلين ومبتدئين.. وكان البعض من القدامى يعارضون ذلك بشدة لعلمهم بأحوال البيع والشراء والقوانين السارية. ولكن بإيمانك وحبك، وهبك الله شهوة قلبك رغم عدم درايتك بهذه البلاد الغريبة. فتعرفت على سمسار لبناني وكانت كنيسة معروضة للبيع (هي كنيسة مارمرقس بلوس أنجلوس حالياً) واتفقتم مع البائعين على السعر. وتشجع أولادك الشبان وبعضهم أعطى كل ما يملك وجُمع مبلغ **25** ألف دولار وهو مبلغ كبير جداً في ذلك الحين. وكان عليك أن تضعه في البنك لكي يُدفع بشيك كمقدم للثمن في المكتب الذي يُكمل صفقات البيع والشراء مثل الشهر العقاري (Escrow).

أخذت المبلغ النقدي مع بعض الشيكات ولففتهم مع بعض في لفة واحدة. وركبت السيارة التي وضعها تحت تصرفك أحد أبنائك.. وذهبت إلى البنك.. دخلت البنك لكي تودع المبلغ. وضعت يدك في جيبك وإذا بك لم تجد المبلغ، فتشت عليه في كل جيوبك ثم رجعت إلى السيارة تقلب مقاعدها وتنظر في أرضيتها.. لقد ضاع كل شيء الدولارات مع الشيكات.. وكانت تصحبك أنجيل، لم يكن أمامك أن تفعل شيئاً سوى الصلاة والتضرُّع. ورجعت إلى حجرتك وأنت

صامت. عُدت تبحث عن المبلغ في الحجرة وهي صغيرة ومحتوياتها محدودة.. فلم تجد شيئاً.. سلّمت أمرك إلى الله وصمتّ. وبعد ساعات رجع أحد أبنائك وهو يسكن بنفس العمارة من عمله وكعادته دخل إليك فوجدك ساكناً متجهماً على غير عادتك. فسألك على الفور "ماذا بك يا أبى" أجبته على الفور.. "أبداً نشكر الله، كل شيء كويس".. سأل "هل ذهبت إلى البنك اليوم" وهو متلهف على أخبار شراء الكنيسة. قلت: "نعم ذهبنا" ولم تعقب بشيء وقلت: "يا أنجيل أعدي لفلان ليأكل". قامت أنجيل بسرعة وأعدت له ما يأكل.

ولكن الأخ كان قلقاً وأحس أن شيئاً غير عادي قد حدث.. جلس يأكل ولكنه أخذ أنجيل على ناحية وسألها "ماذا بكما؟ أبونا ليس كعادته كل يوم.. لا بد أن تقولي لي!!" أخبرته أنجيل أن الفلوس كلها فقدت وفتشنا عليها في كل مكان ولكن بلا جدوى.

أخذت الأخ رعدة من سماع هذا الخبر المؤلم .. ولم يتكلم بشيء .. ولم يكمل غذاءه واستأذن أن يذهب إلى حجرته .. فقال أبونا: "لماذا لم تأكل يا ابني؟" قال: "أنا تعبان شوية وخرج". وعند باب حجرته لاحظ شاباً أمريكياً أسمر اللون واقفاً متحيراً عند الباب الرئيسي للعمارة. سأله الأخ "هل من الممكن أن أساعدك في شيء؟" أخرج الشاب ورقة من جيبه وقال: "هل يوجد هنا أحد باسم الأب اسحق" (وهو اسم العائلة لأبينا بيشوى كامل اسحق). قال الأخ: نعم هو ساكن هنا. قال الشاب الأسود: هل ممكن أن تدلني على شقته؟

قال الأخ: تعال معي وصعد إلى شقة أبونا وطرق البـــاب. أخـــرج الشاب الأسود من جيبه النقود والشيكات كما هي بلفتها وقـــال: يـــا أبي قد وجدت هذه بجوار سيارتك وأنت تركبها ربما سقطت منـــك دون أن تدري، حاولت ألحقك ولكني فشلت وقد تعرّفت على الاسم والعنوان من الشيكات والأوراق الأخرى التي معها. وقلت لنفســـي انتظر إلى بعد الظهر إلى أن تكونوا رجعتم إلى منزلكم ولا بد أنكم مشغولين على ضياع المبلغ.

احتضن أبونا الشاب الأسود يشكره ويدعو لـــه.. وانـــذهل الأخ الواقف.. كيف يحدث مثل هذا الأمر شيء مذهل لا يصدقه العقل. إن الشبان هنا ولا سيما السود منهم وفي مثل هذه المنطقة بعضـــهم عصابات ويرتكبون كثيراً من أعمال السرقة والاعتـــداءات لأجـــل دولارات قليلة بل ويقتلون من أجل تنفيذ أغراضهم فـــي الســـرقة. وهذا الشاب يقع في يـــده **25** ألـــف دولار نقـــداً ويرجعهـــا بهـــذه الصورة.. يا الهي.. شيء غريب.. غريب.

عبثاً حاول أبونا أن يعطي هذا الشاب شيئاً من النقـــود، أصَـــرَّ الشاب الأسود ألا يأخذ شيئاً وانصرف إلى حال سبيله.

صارت هذه الحادثة يا أبي شاهداً أمـــام عيـــون أولادك أن الله مظلل على يدك اليمنى وأن ملاك سلامه يحيط بك يخلصك من كل فخ ومن كل تجربة. فتقوي إيمان أولادك وحبهم للمســـيح صـــانع العجائب الذي لا يترك أصفياءه.

يـوم انـطلاقك

يوم **17** مارس **1979** وبالضبط قبل انطلاقك إلى السماء بأربعة أيام. وكان المرض قد بلغ ما بلغ في هدم خيمتك الأرضية.. وكنت تروح في غيبوبة ثم تفيق منها وهكذا وأنت على مشارف المـوت بالجسد .. صحوت يومها وقلت للمحيطين بك: "حد يروح يحجـز مكالمة علشان أكلم أبونا لوقا". كان يومها الاتصـال بـين مصـر وأمريكا تليفونياً أمر صعب يُعمل لـه ترتيبـات مسـبقة وتُحجـز المكالمة وتتم عن طريق روما ثم نيويورك ثـم لـوس أنجلـوس. فقامت بسرعة إحدى بناتك لتذهب إلى السنترال لحجز المكالمـة.. وإذ بالتليفون يرن في منزلك. رفع أحدهم السماعة فقيل له مكالمـة من لوس أنجلوس. كانت الأخت مازالت تنزل علـى سـلم بيتـك فرجعت.. يومها تكلمنا معك مكالمة طويلة وكنت يـا أبـي تـتكلم بصوت عال وذهن صاح.

سألتك: ازيك يا أبونا؟

قلت بصوت جهوري: "أنا كويس.. حد قالك حاجة غير كده؟"

قلت لك: "حد مين؟" قلت: "سيدنا البابا ولا حد".

قلت لك: "أنا لم أسمع أخبار من أحد.. لماذا؟ ماذا بك؟"

أنا اشكر الله كويس جداً.. أشخط فيك علشان تعرف؟."

"أشخط يا سيدي زي ما أنت عاوز.

"أنت مش عارف النهاردة إيه؟"

"آه صحيح كل سنة وأنت طيب (النهاردة كان يوم رسامتي - قبل عيد الصليب بيومين).

ثم تكلم مع نادية وقال لها: كل سنة وأنتِ طيبة امبارح كان عيد ميلادك. وتكلمنا وسألني عن الخدمة وأكد لي أنه كويس.. وضحكنا.. كل شيء كان طبيعي جداً. وانتهت المكالمة ونحن في غاية السرور.

ولم أكن أعلم أنها كانت آخر مرة نتحدث سوياً وأنت في الجسد. وبعدها بثلاثة أيام وأنا خال الذهن تماماً.. في مساء الثلاثاء **79/3/20** وهو بسبب فرق التوقيت يوافق صباح الأربعاء في الإسكندرية. ركبت سيارتي لافتقد بعض العائلات.. ومشيت في أحد الشوارع وذهبت إلى أول بيت سأزوره ولكني لم أستطع أن أنزل.. شعرت بأنني غير قادر على رؤية الناس أو الحديث معهم ولم أدر ماذا أصابني. أنني أشعر بشيء يقبضني.. إحساس حزن مجهول.

لم أنزل من السيارة بل أدرت محركها ومشيت على غير هدي ربما ساعة كاملة أو يزيد.. وكنت متحيراً في نفسي.. ترى ما هذا الإحساس القاتل.. رفعت قلبي بالصلاة كل هذه المدة. وأخيراً وقفت أمام منزل أحد الخُدّام (المهندس نبيه فؤاد) وغلبت نفسي ودخلت

عندهم.. فوجئ الأخ بمنظري غير الطبيعي وقال: ماذا بك؟ ماذا حدث؟ قلت: لست أدرى..

جلست وقلت له ممكن تطلب لي أبونا بيشوى في الإسكندرية.. قال باضطراب: هل سمعت شيء عن أبونا؟ – لأنه هو وزوجته وعائلاتهم من أحباء أبونا الأخصاء – قلت: "أبداً ولكنني منزعج بدون سبب، بل بالعكس لقد تكلمت معه منذ يومين وهو بخير لكن أرجوك حاول تطلبه". رفع الأخ سماعة التليفون واتصل بالسنترال وتوسل إليهم أن يطلبوا المكالمة في الحال لأنها تخص حياة أحد وضرورية، فحاولوا.. ودق التليفون في بيت أبونا بيشوى.

جاوبني أبونا تادرس. وما أن سمع صوتي حتى انهار يبكى.

"فيه إيه يا أبونا.. أبونا ماله؟".. قال: "مفيش".

"أبونا جرى له حاجة".. قال: "لا لسة".

"يا ربي يسوع.. ماذا تقول؟"

قال: "دعني أدخل الحجرة". ثم علا صراخ شديد..

لقد أسلم أبونا روحه الطاهرة في تلك اللحظة.

أدركت فيما بعد أن الله لم يشاء أن يحرمني من أن أحيا لحظة انطلاقك رغم ما فيها من ألم لم أختبره مدى حياتي كلها.

أسـرار وأسـرار

إحدى بناتك في شبرا – القاهرة – كانت قد فقدت البصر منـذ أن كانت ابنة 14 سنة. وكانت تربطك بعائلتها صلة محبة شـديدة. وكنت تزورهم وتغمرهم بمحبة واهتمام خاص. وكانت لهذه الأخت مرتبة خاصة في قلبك بسبب تجربتها وبسبب نقاوة قلبها.

فكانت في أيام مرضك في حزن شديد وكانـت تصـلي مـن أعماقها وتطلب في الليل والنهار من أجل شفائك.. كانت وقتها فـي سن الثلاثين من عمرها ولكن قلبها كان مثل طفل صغير. وكانـت صاحبة دالة عند شفيعها الشهيد مارجرجس فهي تحبه وتعمـل لـه التماجيد وهو يعزّيها ويسندها بطرق إعجازية.

عندما سافرت إلى لندن وكانت الأخبار تأتي من بعيد متضاربة وقد كثرت الأقوال.. كانت هذه الأخت مواظبة على التشفع والطِلبة. وفي حال تضرعها طلبت طلبة عجيبة مـن الشـهيد مـارجرجس ونذرت نذراً إن كان أبونا بيشوى يرجع بسلام يوم (...) مـارس، وحددت يوماً معيناً.. والعجيب في الأمر أن الرب في تدبيره العالي استجاب لهذه الطلبة وعاد أبونا من لندن في ذات اليوم.

وكان في استقبال أبونا جمع كثير.. بعـض الآبـاء الأسـاقفة وكهنة وشعب كثير. جمع كثير كان بمطار القاهرة. ومـن ضـمن الجموع المحتشدة كان والد هذه الأخت وبعض إخوتها. قالت وهى في قمة الفرح لوالدها قبل أن يغادر منزلهم فـي شـبرا متوجهـاً

للمطار.. سلِم لي على أبونا.. مع إني أعلم أنه سيأتي ليسلم عليّ. قال والدها وهو رجل تقي طيب القلب.. "يا بنتي ده راجل مريض وجاي من سفر بعيد، ثم من نحن حتى يحضر إلينا".

قالت في ثقة غريبة: المهم إنه يجي بالسلامة، ولكن أنا واثقة أنه سيحضر.. سكت الرجل وترك المنزل وذهب إلى المطار. وصل أبونا بالسلامة، وسلّم على كل الموجودين في المطار وفي وسط الزحام سأل الرجل عن هذه الأخت وكيف حالها. قال الرجل: كلنا بخير يا أبونا، المهم ربنا يشفيك ويخليك لينا. انصرف الرجل عائداً إلى منزله. وترك أبونا بيشوى وقد ركب سيارة أحد أحبائه من الإسكندرية وهم يتشاورون هل يأخذوا الطريق الصحراوي أو الزراعي. واستقر رأيهم أن يأخذوا الصحراوي، أسرع وأسهل بدلاً من الزراعي. وصل الرجل منزله وهو فَرح سعيد إذ نال بركة أبونا ورآه رؤى العين وهو يتماثل للشفاء.

فاجأته ابنته وهى متلهفة.. هل شُفت أبونا؟ كيف حاله؟ هل هو مفتوح العينين؟ (لأن أبونا قبل سفره كان يعاني من ازدواج في الرؤيا بسبب المرض فكان يقفل إحدى عينيه لكي يبصر جيداً). فأجاب أبوها: "أيوه يا بنتي نشكر الله وصل بالسلامة وعينيه مفتوحة وصحته الحمد لله، ربنا يكمل له الشفاء". قالت: "قالك إنه جاي هنا". قال الرجل: لا يا بنتي لقد ركبوا السيارة وذهبوا إلى الطريق الصحراوي. قالت البنت في نبرة غريبة.. "لا هو جاي." قال الرجل: "قلت لك يا بنتي إنه ذهب راجعاً إلى الإسكندرية، لو

كانوا أخذوا الطريق الزراعي كان ممكن يمروا.. لكن هل هذا وقت زيارات.. أرجوك كفاية يا بنتي". سكتت الأخت ولم تجب بشيء.

تحركت السيارة التي ركبناها أبونا بيشوى وأنجيل وأنا ونادية زوجتي مع الأخ صاحب السيارة.. وبعد ما سرنا حوالي عشرة دقائق قال أبونا بيشوى للأخ صاحب السيارة.. أنت رايح صحراوي قال نعم يا أبونا. قال أبونا له: ممكن نروح زراعي. قال قائد السيارة تحت أمرك يا أبونا. غيّرنا اتجاهنا وذهبنا في الاتجاه الذي يوصل بالطريق الزراعي من شارع أحمد حلمي في شبرا. وقرب بيت هذه الأخت قال أبونا للأخ: ممكن تدخل الشارع ده لمدة دقيقة واحدة؟ قلنا كلنا.. لماذا؟ قال أبونا دقيقة واحدة بس.

كانت هذه الأخت كل هذا الوقت قلقة كأنها في حالة انتظار ولم تجلس ولم يرتاح لها بال وكان والدها يقول لها: "يا بنتي ارتاحي.. الراجل مشي خلاص". وقرب وصولنا إلى منزلهم ذهبت نحو باب شقتهم ووقفت هناك. تعجب أبوها جداً لهذا السلوك وقال: يا بنتي ماذا بك؟ قالت له: انزل إلى الشارع أبونا تحت أمام المنزل. لم يصدق الرجل وإذا بلحظات وأبونا طالع على سلمهم رغم أن شقتهم كانت بالداخل لا تطل على الشارع ولا يُسمع فيها أصوات أي سيارات. والأخت أصلاً كفيفة لا ترى. وقبل أن يقترب أبونا إلى باب الشقة فتحت هى الباب واندفعت فاحتضنها أبونا بيشوى. قبّلت يديه وقالت: الحمد لله على سلامتك، أنا لا استحق أنك تأتي إلىّ ويكفي أنني اسمع أنك بخير.

صليب اليد

مما يدعو إلى العجب قصة صليب اليد الذي كنت تمسكه وهو صليب صغير من المعدن. كان لمّا عدت من لوس أنجلوس يوم تذكار الأربعين لانتقالك وذهبت إلى بيتك ولأول مرة أدخله وأنت غير حاضر في وسطنا بجسدك وكان التأثر والبكاء وانفعالات يصعب التعبير عنها.

أنني يومها أخذت هذا الصليب الصغير وجعلته في جيبي أمسكه وأخدم به وكنت أعتز به وأرى فيه نعمة خاصة. وكان بعد ذلك بعدة شهور إنني افتقدت هذا الصليب فلم أجده وعبثاً حاولت أن أفتش عليه في كل مكان ممكن أن أجده فيه. لقد فُقد.. سألت كل البيوت التي زرتها مؤخراً لعلي نسيته في أحد تلك البيوت.. ولكني لم أجده.

سلمت أمري إلى الله ولكن في ضيق.. كنت أعتز به وأفرح وأنا ممسك به.. وكان يذكرني بصليب البابا كيرلس الخامس الذي استعاره الأنبا صرابامون أبو طرحة ليضعه على الأميرة زُهرة بنت محمد علي باشا ليشفيها. كان بالنسبة لي مصدر بركة.. صحيح الصليب صليب المسيح وهو كلي القدرة. ولكنه من رائحة أبونا بيشوى وبركته لي.. كأنه رداء إيليا أو أي من الآباء الذي كان يعطي من بعده خصوصياته مثل ثوب الليف الذي كان لأنبا بولا وكان يلبسه البابا أثناسيوس للتبرك والصلاة. كان هذا هو إحساسي تجاه

هذا الصليب الصغير.. إنه الشيء المحسوس الوحيد الذي بقى في حوزتي.

وفي ليلة من الليالي ربما بعد شهر أو يزيد.. رأيت في الحلم – وكنت قد تعودت أن أراه مرات كثيرة لا أستطيع حصرها – رأيت أبونا بيشوى وقلت له في تأثر: "تصور حتى الصليب الصغير بتاعك ضاع مني وأنا زعلان.." قال لي: "معلهش يا أخي.." قلت: "معلهش إزاي.. أنا زعلان جداً." قال وهو مبتسم: "أجيب لك غيره." قلت: "لا أنا عاوزه هو.." قال: "ولا تزعل أجيبه لك تاني"..

استيقظت من الحلم وأنا أقول هل صحيح؟ ولكن مادام وعد لا بد بنعمة المسيح أنني أحصل عليه مرة أخرى. مضى أسبوع على هذا الكلام، ثم ذهبت إلى بيت أحد أولادنا لعمل قنديل. ذهبت إليهم في الصباح الباكر قبل موعدي معهم ربما بربع ساعة.. فتحوا لي لم يكونوا مستعدين بعد.. دخلت إلى حجرة الاستقبال وجلست انتظرهم إلى أن يجهزوا.. وأنا أحضّر الشورية وانتهيت من التجهيز للقنديل ولكنهم لم يجهزوا بعد. وجدت الكتاب المقدس أمامي موضوعاً على منضدة صغيرة قلت أقرأ إصحاح إلى أن يأتوا. أمسكت الكتاب المقدس وقبلته وفتحته.. وإذا بي أجد الصليب الصغير في وسط الكتاب المقدس. أصابني ذهول وكاد قلبي ينفطر من الفرح.. احتضنته وقبّلته مراراً وأمسكت به في يدي.. وقلت لقد وفى أبونا وعده.. يا إلهي ومخلصي.

جاء الأخ وزوجته.. وصلينا القنديل ودهنتهم بالزيت ورششت المنزل بالماء.. ثم جلسنا.. فقلت لهم: "من أين لكم هذا الصليب؟"

قال لي: "لماذا تسأل؟" قلت: "إنه صليبي الذي أمسكه بيدي.. أين وجدتموه؟"

قال الأخ: "منذ أسبوع كنت في عملي في أبو تلات – وهو مهندس ومقاول يبني بيوت كثيرة في المنطقة – وكان البلدوزر يقوم بعملية ردم كبيرة جداً فيحول كميات من الرمل أطنان أطنان من مكان إلى مكان آخر. وفي إحدى المرات وهو يزيح كوماً من الرمال مثل تل لمع فوق الرمل شيء كأنه شعاع قوي من نور.. فصحت في الرجل الذي يقود البلدوزر.. قف.. قف. وقف الرجل في الحال.. وصعدت إلى أعلى الرمال بنفسي إلى حيث هذا الشعاع المنير.. فوجدت هذا الصليب وأخذته وجئت به ووضعته في الإنجيل بركة لبيتي.

تعجبت جداً وحكيت لهما قصة هذا الصليب.. وأدركت أنه قد وقع الصليب من جيبي من عدة شهور وأنا في منطقة أبو تلات ولم أدر وغاص طبعاً في الرمال.. وهل يمكن أن يوجد في بحر الرمال؟

أخذت طبعاً الصليب الحبيب وجعلته في مكان خاص ولم أعد أمسكه خوفاً عليه من الضياع. ولكني لا أستغني عنه في الكثير من الأحيان.

من طرائف القصص

في سنة 1980 كانت موجة التعصب ضد المسيحية في مصر قد بلغت ذروتها. لا سيما أعمال الجماعات ضد الطلبة المسيحيين وكان الرئيس السادات قد أزكى هذه النار بمساندته لهذه الجماعات. وقد حدث ما حدث من أحداث واضطرت الكنيسة يومها إلى إعلان موقفها تجاه سلبية الحكومة بل ومساندتها لهذا التيار.. فانعقد المجمع المقدس وبعد استعراض الحالات الكثيرة وما وصل إليه الحال، اعتذر المجمع المقدس عن قبول تهنئة العيد من الحكام وأعلن البابا والآباء الأساقفة أنهم يعيّدون عيد القيامة في الدير.

يومها كان لبعض الآباء وآخرون من الأراخنة رأي على خلاف ذلك وكان في رأيهم أن هذا لا يأتي بالنتائج المطلوبة.. ويومها هاجت الحكومة بالأكثر وتدخل بعض الوزراء ورأوا أنه من الأصح أن يعالج الموضوع بغير هذه المقاطعة.. وذهبوا إلى أبونا متى المسكين وهو بدوره ذهب إلى الدير لمقابلة البابا فقال له البابا: كل ما تراه أنه يعود لنفع الكنيسة وما في مقدورك أن تفعله أفعله.

فذهب أبونا متى وقابل الرئيس السادات ونشرت الصحف هذه الصورة في الصفحة الأولى واُستغلت استغلالاً سيئاً.. ولم تأت هذه

المقابلة ولا غيرها بنتائج مطلوبة. وعاد الوضع إلى أسوأ مما كان عليه.

في أيامها سمعت من أحد الآباء الأساقفة خبراً يقول أن أبونا بيشوى كامل ظهر في حلم للأنبا فلان وقال له: أنا زعلان من أبونا متى المسكين. وقد حكى هذا الأب الأسقف هذا الحلم لكثير من الآباء وشاع هذا الخبر وانتشر بين الناس. قلت في نفسي: "إن هذا الأب الأسقف لم يكن ضمن شباب كنيستنا في سبورتنج ولا حتى كان من الطلبة المغتربين الذين قضوا سنوات دراستهم الجامعية في الإسكندرية. فكيف يظهر له أبونا بيشوى ويقول له هذا الكلام؟ ربما كان ذلك مقبولاً لو أنه ظهر لأحد أبنائه الذين تربطه بهم صلة أو سابق معرفة. وبينما أنا متفكر في مثل هذا الأمر".. وفي ليلة من الليالي حلمت حلماً بأنني أصلي القداس مع أبونا بيشوى في كنيستنا باسبورتنج وبعد ما انتهينا من القداس الإلهي وخرجت خارج الهيكل ألبس حذائي.. تذكرت هذا الأمر.. فعدت ودخلت إلى الهيكل وقلت لأبونا بيشوى: "هل تعرف الأنبا فلان؟" أجابني طبعاً أعرفه. قلت: "هل كان هذا الأب من شباب كنيستنا؟" قال: "لا". قلت: "هل كان مغترباً هنا في الإسكندرية؟" قال: "لا". قلت: "تصور أنه يقول أن أبونا بيشوى ظهر لي في حلم وقال لي: أنه زعلان من أبونا متى المسكين من أجل وجهة نظره في موقف الكنيسة الحالي؟"

قال: "بالفعل أنا ظهرت له وقلت له هذا الكلام". أجابني أبونا وقال: "لأن الأمر في هذا الموقف بالذات لا يعالج إلا باتخاذ الموقف الذي اتخذته الكنيسة". تعجبت أن أبونا وإن كان قد خرج من الجسد ولكن بروحه يتابع جهادنا خطوة بخطوة بل وبالروح أيضاً يرى ما هو أنفع وأجدى.

وتعلّمت أن أرواح القديسين لا تكون حكراً لأحد ولا وقفاً على منطقة محدودة بحدود جغرافية أرضية، بل صاروا للجميع على قدم المساواة. إذ هم أرواح مكملة يحيطون بالكنيسة كسحابة شهود لمساندة جهادنا وتكميله في المسيح إلى النفس الأخير.

الرحمة تفتخر في الحكم

فصل الإنجيل الذي تقرأه الكنيسة في قداس أحد رفاع الصوم الكبير المقدس الذي هو جزء من الموعظة على الجبل ويشمل حديث الرب عن الصوم والصلاة والصدقة لكي تستحث الكنيسة كل نفس على الاستجابة لدعوة الرب والإصغاء إلى وصاياه وتتبع ناموسه، وقد يسترعي الانتباه أن الترجمة القبطية في القطمارس للآية التي تقول: "ومتى صنعت صدقة" ترجمها الآباء من القبطية إلى العربية هكذا: "ومتى صنعت رحمة لتكن رحمتك في الخفاء". فهي إذن ليست صدقة بمعنى إعطاء ذوي الحاجات كعمل العطاء المادي.. ولكن كلمة رحمة جعلتها عملاً قلبياً ينبع من حنان داخلي تجاه من نُحسن إليهم.. إننا نصنع معهم رحمة.. كقول المزمور أيضاً: "طوبى لمن يتعطف على المسكين والفقير".

وهذا يميّز بين العمل الاجتماعي والعمل الروحي، ولو أنهما يتوازيان شكلاً ولكنهما يختلفان من جهة الهدف والدافع معاً. فهدف الرحمة ودافعها هو المسيح وعمل نعمته في داخل النفس، فهو الذي ينشيء في الداخل أحشاء رأفات وهو الذي يجعل القلب هكذا رحوماً عطوفاً.. فبالنعمة يبلغ الإنسان إلى قلب المسيح كثير الحنان كثير الرأفات.. الذي من فرط حنانه ورحمته أخذ شكل العبد ووُجد في الهيئة كإنسان مترفقاً بالخليقة كلها ومنحنياً إليها ليقيمها

من تعاسة الخطايا وانحطاط الشرور ليرفعها إلى أعلى حتى إلى السماوات.

لذلك صارت الرحمة إحدى علامات الثبات في المسيح والتمتع بنعمته. فالآباء القديسون لمَّا امتلأوا بالنعمة صاروا رحماء لطفاء شفوقين ليس على بني البشر فقط، بل وحتى على الحيوانات الضارية أيضاً. وقد استرعى انتباهي سيرة القديس بطرس العابد الذي تعيّد له الكنيسة في 25 طوبه الذي كان في أول عهده قاسياً بخيلاً لا يعرف الرحمة.. حتى اشتهر بين الناس ببطرس البخيل من أجل كثرة شحه وأنانيته رغم أنه كان غنياً موسراً.

ولكن افتقاد النعمة له كان عجيباً بالحق.. فبينما كان في حقله أيام الحصاد اقترب إليه فقير معدم يطلب صدقة.. فقابله بطرس كعادته بجفاء ليطرده من أمامه.. ولكن الرجل كان لحوحاً لسبب حاجته.. وقد صادف ذلك الوقت وصول خادم بطرس يحمل طعام الغذاء.. فمن غيظ بطرس من لجاجة الرجل الفقير، أخذ رغيفاً من على الصينية وطوح به نحو الفقير يطرده من أمامه، فما كان من الفقير إلا أن التقط الرغيف من الأرض وذهب إلى حال سبيله.. أكل بطرس غذاءه، ونام ليستريح، وإذا به يرى في رؤيا كأنه قائم أمام كرسي الديان العادل.. حين تُقيّم أعمال الإنسان وتوزن في الميزان. وإذا بشياطين الخطايا المختلفة يقدمون شكاواهم عليه وأطنان الخطايا على مدى الأيام والليالي يأتون بها ويضعونها في

كفة ميزان.. بينما وقف الملائكة النورانيون كأنهم في خجل إذ ليس لهم ما يقدمون لأن حياة الرجل كانت خالية من أعمال الرحمة. وفي أثناء ذلك تقدم ملاك حاملاً رغيف العيش الذي ضرب به الفقير وقال الملاك: "إنه قدم هذا لفقير".. وهنا أفاق بطرس من نومه وهو مرتعب على ما فرط منه في سابق الأيام ومتحسراً على خلو حياته من أعمال تتقدمه أمام الله "لأن أعمالهم تتبعهم". حقاً إن التوبة مقتدرة في فعلها والتغيّر العجيب الذي تحدثه التوبة في حياة البشر يشهد لنعمة الله التي تصيّر العميان مبصرين.

لقد تغيّر قلب بطرس فصار رحيماً.. أعطاه الله الرب قلباً رحيماً رقيقاً، فابتدأ يختبر غبطة العطاء وفرح السخاء.. أعطى وأعطى ليس شيئاً من ماله، بل كل ماله، كل ما يملك.. أعطى بحسب الطاقة وفوق الطاقة. ويقول التاريخ أنه لمَّا لم يعد مع بطرس شيئاً يعطيه، ذهب إلى بلد آخر وباع نفسه كعبد وقبض الثمن وتصدق به على الفقراء.. إلى هذا الحد من النقيض إلى النقيض، ومن قاع الخطايا إلى قمة الفضائل. هكذا تقتدر التوبة في فعلها أن تنقل سيرة الإنسان من العالم إلى السماء.

إن الذين كانوا يسقطون في تجارب النجاسة ويدنسون أجسادهم بالخطايا كانت تُعطى لهم تداريب لأن يصنعوا أعمال رحمة لنفوس فقيرة ويواظبون عليها لكي يشفوا من داء النجاسة ويحوزوا على قلب رحيم لأن معروف أن شيطان الزنا هو شيطان الكبرياء

واعتداد بالنفس فإن حاز الإنسان على قلب رحيم كف عن هذه الخطايا كقول الرب للفريسين: "بل أعطوا ما كان عندكم صدقة وكل شيء يتطهر لكم".

أقول الصدق في المسيح يسوع أننا رأينا هذا المثل النادر في أعمال الرحمة، رأيناه بعيوننا ولمسناه وعايشناه في أبينا بيشوى صاحب القلب الرحيم الذي تثقل بأوجاع أولاده الفقراء والمعدمين والضعفاء وذوي الحاجات.. لقد أعطاه الرب قلب القديس أغاثون الذي كان يطلب إلى الرب قائلاً: "آلمني يا رب بآلام أخوتي الفقراء"، بل اشتهى أن يأخذ جسد إنسان به جذام.

لم يكن أبونا بيشوى يعطي الفقراء مجرد عطايا مادية، كان قلبه الأبوي الرحيم يغدق عليهم حناناً وعطفاً فائقاً.

ما أسهل العطايا المادية أما عطاء القلب فقد خص الله به القديسين في كل جيل. لا أنسى منظره وعيناه تدمع بعد أن قصت عليه إحدى الفقيرات مأساة ابن لها كان مريضاً.. وهو كان يتابع كلامها باهتمام شديد. وقال لي يومها: "أما اختار الله فقراء هذا العالم أغنياء في الإيمان وورثة الملكوت". وقال لي أيضاً: "هذا هو الطريق الذي يوصلنا إلى السماء".

حنـان الأبـوة

حنان أبوي لا يوصف تمتع به كل أولادك في المسيح.. كيف كنت تحب بهذا المقدار. وتُظهر هذا الاهتمام لكل أحد فيشعر كل واحد أنك تهتم به اهتماماً خاصاً وأنه له في قلبك مكانة خاصة.. أي قلب كان قلبك يا أبي وأي حب كان حبك.

أذكر أنني في بداية خدمتي كنت كشاب صغير قليل الخبرة في كل ما يدور حولي وكنت كأب تدرجني ممسكاً بيدي بدون أن تشعرني بنقص أو ضعف.. حتى في حياتي الخاصة لم أشعر بعبء الحياة في مسكن أو تدبير الاحتياجات.. الخ، فكنت معك كأني طفل يتكئ في حضن أبيه بلا هم.

أذكر أن زوجتي بعد ما وضعت طفلها الأول بأيام أن تجمد اللبن في صدرها ثم تحول إلى خراج واحتاجت على الأثر إلى دخول المستشفى فأحضر لها أبونا أحد أحبائه، أستاذ جراحة فأجرى لها العملية.. فلمَّا أخرجوها إلى حجرة الإفاقة كانت - وهى في غير وعيها من آثار التخدير - تبكي وتتأوه.. كنت واقفاً أنا ووالدها ووالدتها وبعض الأقارب.. وكنت أنت يا أبي في لهفة واهتمام شديد واضح الأثر بكل أحاسيسك راكع إلى جوار سريرها تناديها وتقول: "قولي يا يسوع.. قولي يا يسوع.. يسوع حبيبك تألم لأجلك".

كان وجهك يعبّر عن بالغ اهتمامك وحبك. وفيما أنت كذلك دخلت إحدى الممرضات وحين رأتك كذلك دمعت عينها وقالت لأحد الواقفين.. هل هذا زوجها؟ رد عليها قائلاً: " لا".. قالت: "فمن يكون؟".. قال: "أبوها".. قالت: "ربنا يشفيها له".

لم تكن مشاركتك يا أبي آلام أولادك مشاركة الوعظ والمواساة والكلام المستهلك. لكن حبك كان كطوفان غامر كل من ذاق حلاوته عرف مرارة الحرمان حين تركت العالم وانطلقت إلى السماوات العليا.

اســم يـسوع

اسم الخلاص الذي لربنا يسوع كان لهجك النهار والليل تكرره بدالة منقطعة النظير وحب حقيقي فحين كنت تنطقه يشعر الســامع بمقدار العمق الذي متّعتك به النعمة فحصلت على الكنوز المــدخرة لنا في اسم المبارك.

لقد تعلقت نفسي بك في شبابي المبكر إذ رأيت فيــك صــورة المسيح الحنون. أذكر أنك في سنة 1966 كنــت مريضــاً وكنــت أزورك في منزلك وكانت درجة حرارتك مرتفعة جداً فقــررت ألا أتركك ولا سيما أنني كنت أسكن وحدي وليست عليّ مســئوليات. وقضيت ليلتي بجوارك وأنت ملازم الفراش وسهرت لكي أعطيــك الدواء في ساعاته المحددة.. وأنت في مرضك ونومك كلما تحركت من الألم لم يفارق اسم يسوع فمك ولا فكرك. لم يســتطع الجســد المحموم أن يطغي على تعلق نفسك باسم الخلاص الذي لربنا يسوع المسيح. وهذا ما ظهر بوضوح يوم انتقال والدك بالجسد، وانطلاقه من العالم.. يومها سهرت عليه طوال الليل وهو يحتضر وكلما تأوه كنت تهمس في أذنه قائلاً: "قل يا يسوع يا بابا.. يا يسوع.. يا رب يسوع المسيح ارحمني". إلى أن لفظ آخر نفس وأنت تحتضنه فــي حضنك وتقول يا يسوع.. يا يسوع.. وكان الرجل الطيــب القلــب الذي عاش حياة جادة مقدسة، يحرك شفتيه وإن عجز جسده المائت عن الكلام ولكن روحه انطلقت إلى السماء متمسكة باسم الخلاص.

في أسيـوط

في زيارتي الأولى لأسيوط في مـارس 1968 بـدعوة مـن صاحب النيافة الحبر الجليل الأنبا ميخائيل مطران أسيوط المكـرم لكي أقضي أسبوعاً أخدم فيه في عشيات وقداسات الأسـبوع الأول من الصوم الكبير المقدس. جلست إلى جوار هـذا الحبـر الجليـل صاحب الخبرة الروحية والإفراز ورجل المواقف الشهير.. جلست إليه وأنا شاب صغير أتعلم كلام الحكمة والتدبير.

وقد ترك أثراً عميقاً في نفسي كلام هذا الرجل الحكـيم الـذي تربى عند شيوخ شيهات وسلك حياته الرهبانية والنسكية في آثـار خطواتهم كأنه رجل من الجيل الرابع الميلادى، فهو الراهب الـذي مات عن العالم ولم يعد له أسرة لا أب ولا أم ولا أخـوة بحسـب الجسد ولا عائلة ولا خاصة ولا بطانة. فالكنيسة فقط هـي أسـرته وعائلته وشعبه هم أولاده وإخوته.. حتى أنه على مـدى عشـرات الأعوام التي قضاها مطراناً لأسيوط لم يعرف أحد من شعبه أن له أخوة أو أقارب بالجسد. فلم يكتب اسمه في نعي أخ أو قريب فـي الأهرام مثلاً، ولا جامل أفراد عائلته في أفراح ولا في حالات وفاة. وقد سلك هذا السلوك الرهباني منذ بكور حياته وصار معروفاً لدى الجميع أنه راهب قد مات عن العالم وعن كل ما في العـالم. وقـد سعدت جداً بمعرفتي بهذا الأب الجليل وصارت بيننا محبة كبيـرة

وقد خصني ولا يزال يخصني بإكرام ومحبة وتقدير أنا لا أستحقه.. أطال الله حياته ونفع الكنيسة بصلواته.

حكى لي نيافة الأنبا ميخائيل زيارة أبونا بيشوى كامل الأولى لأسيوط ربما سنة 1965. قال: "نحن دائماً ندعو وعاظاً كثيرين من مختلف البلاد لا سيما في أيام الأصوام.. كلهم أباء أو شمامسة يحبهم الناس ويحبون كلمة الله على لسانهم. ولكن من عادتنا ألا نعلن للناس عن المتكلمين لأننا لا نريد أن يهتم الشعب بالمتكلم بل ينشغلوا بالكلمة ذاتها. ثم ماذا يريدون من المتكلم كشخص.. سوى كلمة الله أياً كان المتكلم.

وقد جاءني من عدة سنوات أحد أبنائي المسئولين عن تدبير المتكلمين وقال يا سيدنا ماذا لو دعينا كاهناً من الإسكندرية اسمه القس بيشوى كامل. أجاب سيدنا "من الإسكندرية.. لماذا؟ هل خلصوا الوعاظ في الأماكن التي حولنا؟ ولماذا نكلف كاهناً من الإسكندرية أن يتكبد مشاق السفر لكي يأتي ويعظنا من آخر الدنيا؟".

فسكت الشماس وانصرف.. ثم عاود سؤاله بعد أسابيع.. ثم مرة ثالثة.. فقلت له: "أدعه". فلمَّا دعاه وقبل أبونا بيشوى الدعوة وحددوا لها ميعاداً.. بعد شهر أو يزيد. وقبل مجيء أبونا بيشوى بأسبوع سمعت همهمة بين الناس.. أبونا بيشوى.. أبونا بيشوى.. قلت: "ما هذا الأمر؟".

ثم جاء اليوم الذي يصل فيه أبونا بيشوى وكان يـــوم ســـبت. والعشية والعظة تبدأ في السادسة مساءً قال سيدنا: "من الساعة الثالثة سمعت أصوات في الكنيسة.. نظرت من شباك مسكني وجدت أناساً بالكنيسة على غير العادة، فالشعب يأتي إلى الكنيسة في الميعـــاد أو قبل نصف ساعة على الأكثر لكي يجدوا مكانـــاً. فالكنيســـة علـــى أتساعها تمتلئ بالمصلين في كل سبت.

تعجبت جداً على كثرة الناس.. ومع الساعة الخامسة كان فناء الكنيسة قد اكتظ أيضاً بآلاف الشعب. قلت في نفسي كيـــف ســـرى خبر مجيء أبونا بيشوى بهذه الكيفية دون أيما إعلان أو تنبيه؟!".

أحضروا أبونا بيشوى من القطار وجاءوا به إلى المطرانيـــة.. وجاء يسلم عليّ وجلس إلى جواري.. وجدته إنسان بسيط جســـمه نحيف ومتواضع جداً.. قليل الكلام. فقلت له أن يستريح من الســـفر إلى الساعة السادسة موعد العشية والعظة.. فانصرف في اتضـــاع شديد.

ولمَّا دخلنا الكنيسة - (ومن عادة الأنبا ميخائيل أنه يدخل إلـــى الكنيسة من مسكنه مباشرة إلى داخل الهيكل ثم إلى صحن الكنيســـة بدون ألحان أو إعلان. فالشعب يجده في الكنيسة ويعرف بوصـــوله عندما يمسك بالميكروفون ويقول بصوته الجهوري.. أبانا الذي في السماوات) - قال سيدنا لأبونا بيشوى: "نحن هنا في أسيوط نحتـــرم الوقت ونحترم المواعيد.. ولكن في المساء نحرص على أن نبدأ في

الميعاد بالضبط ولكن لا ننتهي في وقت معين لأن الوقت مساء وليس عند الشعب أية ارتباطات.. فعندما تعظ كثّر ولا تقلل ولا تعمل حساباً للوقت".

قال أنبا ميخائيل: "رشمنا الصليب وقلت باسم الآب والابن والروح القدس".. وبدأ أبونا يقرأ فصلاً من الكتاب المقدس وبدأ يعظ.. كان الكلام بسيطاً وساذجاً.. لا قوة في الصوت ولا جمال في التعبير أو فلسفة في اللغة ولا حتى الكلام مترابط يعطي السامع لأول وهلة انطباعاً بقوة الكلام أو الموضوع. قلت في نفسي: "علام هذا الهيلمان وكثرة الناس. فالرجل لا يعرف كيف يعظ أو يتكلم كالمشهورين من الوعاظ الذين يعرفهم الناس". مضت دقائق خمسة أو عشرة وأبونا غير مركز في نقاط أو على الأقل غير واضح الهدف في الكلام. ثم بعد دقائق بدأ يتضح اتجاه الكلام. فقلت في نفسي: "لعله اهتدى إلى ما يريد أن يقول، ثم بعد دقائق أخرى وجدته يتعمق في المفهوم، ثم بعد دقائق أخرى ذهب إلى عمق أكثر".

فانتبهت.. ثم مرت الدقائق من عمق إلى عمق ومن حلاوة إلى حلاوة ومن مجد إلى مجد. فلمَّا انتهى من الكلام كان الشعب كالسكارى من فرط الحب والتمتع بشخص المسيح ونعمة كلمة الله البسيطة والعميقة معاً. فقلت في نفسي إنها مدرسة جديدة لروح فعّال وقلت أيضاً إن ضمير الشعب لا يخطئ.. فليس الأمر كلاماً ولكنه كوعد المسيح هو روح وحياة".

فلمَّا انتهينا من الصلاة قلت لأبونا بيشوى: "الناس أخذوا ما أعطاهم المسيح على فمك وهذا يكفيهم وهم يريدون أن يسلموا عليك وأنا أخاف عليك من زحامهم.. ولكن كما تريد". فقال أبونا بيشوى: "لا مانع من أن أسلم عليهم". فلمَّا دخل إلى زحام الشعب لم يستطع أن يبقى سوى دقائق ورأيناه يكاد يختنق من زحام الناس فأشرت إلى الخدام. فحملوا أبونا بيشوى من وسط الزحام بشق النفس".

قال لي سيدنا.. "هذه معرفتي الأولى بأبينا بيشوى وهي في الحقيقة معرفة مباركة.. فمبارك الله الذي يغني الكنيسة في كل جيل وينعم عليها ويجدد شبابها بالنفوس التي تخدمه بكل حواسها".

سر النصرة والغلبة

في حياة الآباء القديسين توجد حروب كثيرة ومشاغبات من العدو الشرير وقوات الشر كقول الرسول إن محاربتنا ليست مع لحم ودم. وقد اتسمت حياة الآباء القديسين بسمة النصرة والغلبة في حروب الشياطين.. هزموه وغلبوه باتضاعهم ومسكنتهم وتمسكهم بالحق واحتمائهم بصليب المسيح.

وكم قابلت يا أبي من حروب ومن أحزان ومن جميعها نجاك الرب وحفظك. ففيما يختص بنفسك أو عندما يلحقك أذى من أي شخص كنت تفرح وتحتمل كأن شيئاً لم يحدث. فإن كانت شتائم أو ضرورات أو معاكسات من أي نوع وإن كان تهديد بقتل أو إشاعات مغرضة بأكاذيب ما كان ذلك يمثل شيئاً بالنسبة لك فقد كنت تسر بالشتائم والضرورات وحينما كنت تبدو كضعيف كانت قوة الله تسندك وتقويك.

أما بالنسبة لمَّا يصيب أولادك من اضطهاد أو أذى بأي نوع فكنت تقويهم لحمل الصليب المقدس وتشجعهم وتسند إيمانهم بالكلام الروحي والمثال الحي والإيمان العامل فيك. وما كانت تتعرض له الكنيسة من شكوى عدو الخير ففي ذلك لم تعرف الكنيسة في جيلك ما عرفته ورأته فيك غيوراً بنار متقدة على مجد الله، وكنيسته بغير تهور أو دافع بشري وقوياً في مواجهة رؤساء أو أصحاب مراكز.

كنت في أدبك الجم واحترامك للرؤساء وخضوعك كأمر الإنجيل لكل ترتيب بشري. ولكن حين كانت الكنيسة تتعرض لظلم أو اضطهاد كنت تشهد بقوة الحق بلا أدنى خوف إذ لم تكن نفسك ثمينة عندك ولم تكن تحتسب بشيء عندك من كل ما على الأرض.

ففي صيف 1971 أيام خلو الكرسي المرقسي. كان الأقباط بحي الدخيلة في الإسكندرية – وهو حي كان غالبية سكانه يحترفون حرفة قطع الأحجار ومعظمهم فقراء – وكانوا قد بنوا لهم كنيسة صغيرة لأن أقرب الكنائس (كنيسة مارجرجس بالمكس) كانت بعيدة عنهم ولم يكن يتسنى لهم الذهاب إليها بصفة دائمة. لذلك كان أولادهم يعانون من نقص الخدمة الروحية والوجود الدائم في الكنيسة الذي يحفظ تربيتهم في المسيح ويسند إيمانهم من أي انحراف.

وكان في زيارة للإسكندرية آنذاك المتنيح الأنبا يوساب أسقف البلينا السابق فطلب إليه الأخوة في الدخيلة أن يصلي لهم أول قداس بطريقة هادئة في صباح أحد أيام الأسبوع.. وفعلاً صلى لهم القداس وانصرف وبعدها شاع الخبر أن المبنى صار كنيسة.. وهذا أثار غضب مأمور قسم الدخيلة فانتقل إلى المكان واعتدى عليه، فمزق ستر الهيكل وكان من قماش خفيف.. ثم ركل المذبح بقدمه وكان حديث البناء لم يمض عليه يوم فانهدم الطوب.. ثم أمر أن يُغلق المبنى ويُحرس بواسطة مخبرين وجنود الشرطة.

يومها كان أبونا مينا آفا مينا (المتنيح الأنبا مينا أسقف دير مارمينا السابق) وكيلاً للبطريركية. فما أن نما خبر الاعتداء على الكنيسة حتى تجمع الآباء في البطريركية يتدارسون الأمر.. وكان الرأي أولاً أن يذهبوا إلى السيد محافظ الإسكندرية (دكتور فؤاد محيي الدين، الذي صار رئيساً للوزراء فيما بعد). فذهبنا كمجمع كهنة الإسكندرية لنقابل السيد المحافظ ولكنه قابلنا بجفاء شديد ولم يرد أن يستمع إلى شكوانا وساءه أمر ذهابنا إليه كجماعة كبيرة من الكهنة. وقال ليس عندي معلومات في هذه الأمور.. وعندما أعلم شيئاً سوف أرى ماذا يُعمل..وصرفنا. عُدنا إلى البطريركية وكانت الآراء متضاربة بين متشدد ومتسيب وبين متهور وخائف.

ولكن سيكتب لك التاريخ وقفتك الخالدة: "إن الاعتداء على الكنيسة سوف لا يمر هكذا بسهولة وإنه لن نصلي في كنيسة في الإسكندرية كلها في الغد (وكان يوم الأحد) ما لم نصلي في كنيسة العذراء في الدخيلة".

كان موقفك الواضح والقوي كروح قوة دخل الآباء، إذ كان الكل يحترم رأيك ويثق في حكمتك. ولمَّا كان المساء وقد سمع كثيرون هذه الأخبار واجتمع ألوف الشعب في الكنيسة المرقسية وفنائها. وقد قُدت الشعب لا إلى التجمهر والشغب بل إلى الصلاة وعلمتهم أن الصلاة هى التي تنقل الجبال وتخرج الشياطين.

وكان شعب الإسكندرية يستلهم من روحك طريقاً للسلوك الروحي الذي لا يلومه أحد. فكنت تجنّب شعبك المخاطر وأنت تقف عنهم كمثل ترتليان مدافع المسيحية الأول. فلمَّا تأزمت الأحوال اتصل المحافظ بأبونا مينا الوكيل وقال له: "هدئ الأحوال". قال أبونا مينا: "مش في قدرة يدي". ثم عاد المحافظ واتصل بأبونا الوكيل وطلب إليه أن يأتي إلى المحافظة لتدارك الأمر.

فذهبنا، أبونا الوكيل وأبونا بيشوى وأبونا جرجس رزق الله وضعفي. لقد سجلت السماء قوة النعمة والحكمة التي كنت تتكلم بها وتجاوب.. فطلبت يا أبي قبل أن ندخل إلى المحافظ أن نعطيك فرصة للكلام فقد كنت تعرف بالروح كيف تتكلم، فلم تكن أنت المتكلم بل روح الله فيك الذي أعطاك فماً وحكمة لا يقدر جميع معانديك أن يقاوموها أو يناقضوها كقول الرب يسوع ووعده الصادق.

قلت للمحافظ: (وقد كان في الأصل طبيباً للأطفال) "كان يجب أن يكون لك ضمير الطبيب.. لقد جاءك الآباء الكهنة كجرحى ينزفون من فرط ما صُنع بهم، إذ هُدم مذبح كنيستهم واُعتدى على مقدساتهم بدون وجه حق.. فأنت بدل أن تسعفهم طردتهم.. وقلت له أيضاً: "إن المراكز يجب أن تكون مسئولية قبل أن تكون سلطاناً.. أنت مسئول عن الأقباط الذين اُعتدى على مذبح كنيستهم فأين هو واقع مسئوليتك؟ ".

علمت وقتها يا أبي كيف يكون الحق سنداً للإنسان فلم تتكلم كلمة واحدة تُلام عليها ولا كان لك انفعال المتعصبين ولكن رزانة القديسين وشهادتهم أمام الولاة كانت تبدو واضحة لا تخطئها عين.

عُدنا إلى البطريركية ولم يكن الرجل قد وعد بشيء، بل ظل متشدداً في موقفه.. وكان بعض الآباء يخشون تطور الأمر إلى أسوأ. وكان البعض يرى أن عدم الصلاة في الكنائس في الغد أمر مبالغ فيه ويخشون عواقبه. ولكن رؤيتك الثاقبة وخبرة الروح فيك ظلت شامخة ثابتة بغير تردد حتى ما بعد منتصف الليل ونحن ساهرون. ثم جاء المرحوم الأستاذ البرت سلامة وصارت مناقشات كثيرة وذهب إلى المحافظ وعاد مرة أخرى.. وقرب الفجر جاءت أوامر من القاهرة أن يُصلَى في كنيسة العذراء بالدخيلة.

فانقلب الاضطراب إلى تعزية وكان الفضل الأول يرجع إلى ثباتك في الحق وشهادتك للمسيح وغيرتك على الكنيسة التي أحببتها من أعماق نفسك.. وقد عرفك الآباء في ذلك اليوم وكل الشعب أنك رجل مواقف مسنود من الله ومؤازر من الروح القدس.

نـفوس ضـعيفة

في غروب اليوم الذي كنا نبني فيه حائط كنيسة السيدة العذراء بكليوباترا وفي وسط زحام الناس وحماسهم الشديد وعربات الرمل والزلط والطوب والأسمنت لا تتوقف.. وكل من كان ماراً بقـرب المكان ورأى الآباء يشتغلون بأيديهم تركوا كـل شـيء وراحـوا يحملون بأيديهم ويساعدون في البناء.

في هذه الأثناء جاءني أبونا بيشوى على انفراد وقال لي: "هل ترى هذه الأخت الخارجة من الكنيسة؟".. قلت: "نعم يبدو أنها غير مسيحية". قال لي: "نعم هى كذلك".. قلت:"ماذا تطلب وماذا تريد في هذا الوقت المزدحم؟" قال لي: "دي مسكينة بها روح نجس.. جاءت وطلبت أن أصلي لها".. قلت: "ثم ماذا؟".. قال في لهجـة تعجـب: "يا أخي الشيطان ده رهيب".. قلت: "ماذا حدث؟" قال: "حالما بدأت أرفع الصليب وأصلي وإذا الشيطان يتكلم في المرأة بصوت رجـل وقال لي: "لا تتعب نفسك أنا مش ها خرج".. فسألته: لماذا؟.. قال: "لأنها ذابحة".. قلت: "ماذا تعني".. قال الشيطان: "أنت مش عنـدك مذبح وعارف.. يعني عاملة ذبيحة يعني عاملة عهد.. فـلا تتعـب نفسك".. قلت لأبونا: "إذن هى بإرادتها تعاهدت مع الشيطان".. قال: "يبدو ذلك.. لكن العجيب يا أخي إنه عارف المذبح وشاور عليـه، وعارف إن دم المذبح عندنا هو العهد الجديد اللي بيننا وبين المسيح".

قلت: "مسكينة هذه النفوس المتغربة عن المسيح لا سيما إذا كانت بإرادتها تذبح للشيطان.. وقد علمت فيما بعد أن كثير من الناس الذين بهم أرواح نجسة يطلب منهم الشيطان ذبيحة ذات مواصفات معينة، مثل ديك أحمر أو أسود.. الخ. وإنهم يذبحون الذبيحة للشيطان ويلطخوا ذواتهم بالدم، فيصير ذلك عهداً بين النفس والشيطان.. فكيف يطلبون الخلاص منه بعد ذلك.

وشكرنا المسيح الذي اشترانا بدم العهد الجديد فصرنا ملكاً له. وليس للشيطان سلطان على أولاد الله الذين لهم السمة التي هي علامة الدم الذي سُفك عنا مثل ما احتمى فيها بنو إسرائيل في القديم.

في الرعاية

قلبك الحنون يا أبي كان ينبض بتفاعل عجيب مع حركات قلوب أولادك إن فرحاً أو حزناً.. فأفراحهم ونجاحهم في حياتهم الروحية هو هدف سعيك وحتى في ظروف حياتهم الزمنية كانت أفراحهم أفراحك ورغم أنك ركزت أنظار شعبك فيما هو فوق ولكن كنت فرحاً مع الفرحين أليسوا هم أولادك؟!! هم سرورك وإكليلك.. أيضاً في أحزانهم كانت قسمات وجهك تعبّر عما يفتعل به قلبك من نحو كل واحد.

كنت في اليوم السابق لكل عيد – ورغم الإرهاق الجسدي أيام الصوم – تزور العائلات التي تمر بظروف صعبة كحالات الوفاة أو المرض أو المتضايقين بكل نوع.. وكنا نحصر العائلات في محيط منطقة خدمتنا ونقسمها أو نزورها معاً قبل قداس العيد بساعات. ولكن أنت لم تكن تحدك منطقة ولا يخصك شعب معين، فكنت تسعى فيما هو أكبر من منطقة جغرافية أو شعب كنيسة محلية كأن الرب كان قد ائتمنك على الجميع.

فكنت تزور مناطق بعيدة وحالات كثيرة. وكنت إذ تقوم بهذه الزيارات الكثيرة في الوقت القصير الذي يسبق القداس. كنت في كل بيت تعزي بالروح وتزيح ثقل نير الحزن عن كاهل أولادك وتفرحهم بالمسيح الذي نعيد له في ميلاده أو قيامته. وكنت على

قدر الإمكان تساعدهم على الحضور للكنيسة لأن الفرح بالمسيح يختلف عن أفراح العالم ويغطي على أحزان العالم.. فاستجاب كثير من شعبك لمفهومك الروحي وأطاعوك وغلبوا الأحزان بالرجاء الذي غرسته فيهم.. وكسرت هذا الحاجز والعادات المتأصلة في الناس صححتها بكلام الحياة والحب والرعاية الحقيقية.

ثم إذ ينتهي قداس العيد وكنا ننصرف كل واحد إلى خاصته.. كنت تعود إلى بعض البيوت لا سيما الذين فقدوا الأب أو عائل الأسرة وتقرع أبوابهم وتأكل معهم.. تجمع الأولاد والأسرة كلها حولك، بل حول يسوع المسيح الذي أحببته وتجبر خواطرهم المكسورة فكان وجودك في وسط كل بيت تعزية لا يعبر عنها وسيظل أولادك يذكرون هذا العمل الفائق. وقد تزور في هذه الليلة ستة أو سبعة بيوت تكسر معهم الخبز وتحول حزنهم إلى فرح بالمسيح الذي فيك. وكنت تقول لي أنا فطرت بعد القداس 7 أو 8 مرات.

غير المؤمنين ردهم

لقد صارت رائحة المسيح فيك شهادة ناطقة ليس للمؤمنين فقط، بل ولغير المؤمنين أيضاً. فالسلوك المسيحي الذي صار ظاهراً للذين هم من خارج صار ملموساً. فاتضاعك العجيب ولطفك وحكمتك في الكلام والتصرف جذب إليك كل من تعامل معك ورأوا فيك نعمة المسيح الحالة عليك فأقبلوا إلى الرب الذي أحبوه فيك.

والقصص كثيرة عن نفوس تحوّلت إلى إيمان عميق وشركة في الرب. فأحدهم ترك الأهل والزوجة والأولاد والأخوة والأقارب والممتلكات، إذ تعلقت نفسه بملكوت السماوات فنفض عنه تراب الأرض وراح يسعى لخلاص نفسه.. فذهب إلى دير العذراء بالمحرق والتصق بأب الدير آنذاك وهو أبونا قزمان المحرقي رئيس الدير وكان شيخاً وقوراً فصار له تلميذاً. وآخر كان طالباً في طب الأسنان وحين فتح الرب قلبه وقبل النعمة صار كارزاً بلا خوف وجذب نفوساً كثيرة إلى حظيرة الخراف.

وثالث كان وحيد أبويه ومن أجل الإيمان ذاق أنواع من الآلام وكان يأتي إليك فتقويه. جاءك في الصباح الباكر في أحد الأيام. كان قد خرج من الحبس تواً وكان متألماً لا لأنه حُبس أو ضُرب أو أُهين، بل لأن أحد الضباط تفل على وجهه فرد وجهه عن البصاق

فصار يبكي لأنه لم يسلك كسيده الذي أحبه فبذل ظهره للسياط وخده للطم ولم يرد وجهه عن خزي البصاق.

كثيرون نالوا النعمة وتجددوا بالصبغة المقدسة فصاروا كخميرة صغيرة يسلكون كأولاد الله في وسط جيلهم. وقد أثار هذا حفيظة عدو الخير فجلب عليك تجارب كثيرة. ولكن كان فرحك يزداد كلما رأيت الثمر المتكاثر لحساب الملكوت ينمو.

وقد تكاثرت الشكاوى وازداد التهديد سراً وعلناً. ولكن كان الرب يسندك فكأن روح نحميا النشيط عديم الخوف الذي بنى أسوار أورشليم المنهدمة كان في وسطنا. فكان البناء يتكامل يوماً فيوم ولم يحفل بتهديد الذين قاموا عليه.

رابح النفوس حكيم

حكيم كنت يا أبي بالحقيقة في معاملة النفوس وقد أعطتك النعمة إفرازاً يندر وجوده في تقييم النفس وتقدير الظروف التي تحيط بها. فكنت عندما تتعامل مع كل واحد وكأنك تشعر بأحاسيس الإنسان الداخلية التي لا يستطيع أقرب الناس إليه أن يتفهمها فكان أن ارتاحت النفوس إذ وجدت المسيح فيك مُريح التعابى والعارف ضعفات أولاده.

على أنك في مجال خدمتك المتسع لم تنس حتى الصغار في نظر الناس مثل المعلم، العمال في الكنيسة، القرابني. كل نفس منهم نالت منك اهتماماً فردياً خاصاً من أجل خلاص كل أحد. فهؤلاء إذ صارت الكنيسة مكان العمل فإنه يصعب خدمتهم لأن روتين وجودهم بالكنيسة مع الاحتكاك بالناس والعثرات إلى جانب اعتبار الكاهن أنه صاحب العمل في ذهنهم.. عوامل كثيرة تصعّب الوصول إلى مثل هذه النفوس وكثير منهم على مستوى ضعيف في الحياة الروحية.

فكنت بالحكمة الإلهية الساكنة فيك تغير ظروف كل واحد.. ومن حين لآخر تلفت نظر الواحد منهم إلى طبيعة خدمته بالكنيسة وإلى الملكوت والميراث. كنت رحيماً معهم فأغدقت عليهم من حبك ليس العطاء المادي فحسب، بل الحب فأحبوك حباً لا يوصف.

تعودنا أن نذهب إلى دير القديسة دميانة في ليلة عيدها. كنا نستأجر أوتوبيس ونذهب نصلي العشية ثم نخرج نستريح قليلاً ونعود للتسبيح طوال الليل ثم نصلي القداس في فجر اليوم ثم نسافر راجعين إلى الإسكندرية. كان الجو خارجاً كما تعود الناس في الموالد.. الزحام والأكل والشرب واللعب والمسامرات... الخ. فكنت تحرص على أن تجمع أولادك في حضنك محروسين من هذا الجو ومتمتعين بالتسبيح والصلاة. فكنت تقول ونحن داخل الكنيسة: "نحن هنا في حضن المسيح.. هذه هى الكنيسة أما ما بالخارج فإنه العالم بضجيجه ومشغولياته الكاذبة".

وكنا إذ نخرج بعد العشية كنت تقود أولادك وتقول: "إحنا نتعشى عند ولسن" (وهو أحد الفراشين ومُحصّل الكنيسة). فكان كثير من أولادك يذهبون معك إلى خيمة ولسن والرجل يغمره الفرح ويقدم ما هيأه للأحباء وكانت بساطتك وحبك وأنت تجلس ضيفاً عنده شيء يفرح القلب. وقد كنت تخص هذا الإنسان بعناية أبوية واهتمام يفوق الوصف دون أن يعرف أحد.

أما القرابني "عم بشاي" فقد كلمتني عنه مرات كثيرة وأنت في غاية التأثر. كان هذا ربما في أول سنة من خدمتك، دخلت إليهم في حجرة عمل القربان فوجدتهم – أعني القرابني وبعض أحبائه من العمال كانوا يساعدونه في عمل القربان – وجدتهم جالسين يدخنون (الجوزة).. فلمّا رأوك اختشوا وارتبكوا.. فكلمتهم بلطفك ومحبتك

وقلت لهم: "ليس هكذا يا إخوتى. إن عمل القربان عمل مقدس.. يعملونه بوقار وصلاة ولا سيما قربان الحمل فإنهم يقرأون عليه المزامير لأنه سيقدم ليكون جسد المسيح المكسور عنا لخلاصنا". وقد أظهروا ساعتها أنهم أنصتوا للكلام ووعوه.

ثم عدت بعد أسبوعين ودخلت إليهم ليلة الأحد ووجدت ذات المنظر الذي نبهتهم عنه فانفعلت وانتهرت عم بشاي وضربته على وجهه. كان الأمر الذي دفعك إلى هذا هو غيرتك على المقدسات. ولم يعودوا إلى ذلك الفعل مرة أخرى. ولكن ضميرك العجيب ظل يبكتك رغم إنك غمرت عم بشاي بإحسانات ومحبة نادرة.. وكان الرجل يحبك ويقدسك ولا يذكر هذا الأمر. وأذكر أننا ونحن في المستشفى بلندن في يناير 1977 وأنت تعتصر ألماً وحياتك تقترب من الموت.. قلت لي: "أنا زمان ضربت عم بشاي بالقلم". قلت لك: "يا أبي إنك كم مرة قلت لي ذلك وقد قدمت إحساناً مضاعفاً لعم بشاي ولم يعد لهذا الأمر الذي مرت عليه عشرات السنوات أثراً لا في نفس عم بشاي ولا في غيره.. وقد اعتذرت لعم بشاي مرات.. ألا ينمحي هذا الفكر بكل أعمال التوبة والمحبة .. أرجوك لا تذكر هذا الأمر ".

هكذا كان ضميرك المرهف المملوء من الروح يبكت الإنسان الذي يلتمس لنفسه الأعذار.

وكنت توجه بعض أولادك الخدام قائلاً: "ألا يوجد من يخدم الفراشين ويكلمهم كلمة روحية ويوجههم إلى التوبة ويهتم بخلاص نفوسهم.. ولماذا تكتفون بعلاقة اجتماعية معهم ومجرد عطاء مادي لهؤلاء؟".

وقد حرصت على خدمة الفئات المهملة من الناس والخدام. قلت مرة لبعض الخدام: "ما رأيكم في المكوجية والحلاقين إن يوم الاثنين هو يوم أجازتهم لماذا لا نخدمهم في هذا اليوم.. ونجمعهم ونفتقدهم ونعمل لهم اجتماع خاص بهم نكلمهم بلغتهم البسيطة وندرس معهم الإنجيل ونشجعهم على الاعتراف والتناول". وقد كان هذا الاجتماع سبب بركة لكثيرين من الخدام والمخدومين على حد سواء.

وهكذا أيضاً قبل أن تُبنى كنيسة مارجرجس بالحضرة – وهو حي فقير جداً - كان الفقراء من هذا الحي يأتون إلى كنيستنا في سبورتنج يوم الأحد وكان منظرهم الفقير يستدر عطف بعض الشعب فيقدمون لهم إحساناً وكثير منهم كانوا يحترفون التسول ويمدون أيديهم إلى الناس.

فقلت لهم: "لماذا لا نعمل قداس لنا لوحدنا لكي لا ينظر إلينا الناس أننا فقراء.. فنحن أغنياء بالمسيح". فصار قداس يوم الاثنين يجتمع فيه كل أحباء الرب وإخوته الفقراء ثم عملت لهم فصول كمدارس الأحد وعهدت إلى بعض السيدات لخدمتهم إلى جانب

توزيع العطايا عليهم. فكان أن أغتنى كثير منهم بالمسيح وتغيـرت حياتهم وخدمتهم لا كخدمة اجتماعية، بل بحق خدمة روحية وصار كثير منهم أحباء لك وكنت تكرمهم وتعاملهم بمحبة صادقة واهتمام لا يقل إطلاقاً عن اهتمامك بأغنى أغنياء شعبك.

وكَمُلَ فيك قول يعقوب الرسول: "لا يكن لكم إيمان ربنا يسوع المسيح رب المجد في محاباة الوجوه". فأكرمت الفقراء ولم تميز بينهم وبين الأغنياء في شيء "أما اختار الله فقراء هذا العالم أغنياء في الإيمان". وكنت ترى في بعضهم مثالاً للبساطة والعمق في المسيح وكنت في اتضاعك تذكر فضائل كثير منهم وتقول أود أن أحب المسيح كما تحبه فلانة أو يكون إيماني كإيمان فلانة.

فلم تخدم أخوة الرب وأنت منفصل عنهم متأفف من حقارة مسكنهم أو ملبسهم أو عاداتهم. بل دخلت بيوتهم وعششهم، بل جلست تأكل وتتباسط معهم وتحتضن أولادهم.

فطوبى للجيل الذي عايش خدمتك وشرب مـن ينبـوع حـب المسيح الذي فيك.

المحبـة فلتكـن بـلا ريـاء

هذه وصيه غالية عشتها يا أبي في عمق إذ قد تمتعت بحبـك للمسيح بإخلاص منقطع النظير .. فكان أن قدمت هذا الحب لجميع الذين دخلوا دائرة معاملاتك.

في فجر شبابك في هذا الوقت لم يكن لك دراية بالخدمة ولـم تكن تخدم لا في مدارس الأحد ولا في أية خدمة أخرى، ولكن لاحظ المتنيح الدكتور راغب عبد النور شاباً يحضر إلى كنيسة السيدة العذراء بمحرم بك وهي الكنيسة المجاورة لكلية العلوم التي كنت قد التحقت بها.. ورأى فيك ما لم يره أحد فتقدم إليك باتضاعه الحلو وتعـرف عليك ثم قال لك كمن يتوسل إليك :"ممكن تساعدنا في الخدمة؟"

قلت لي يا أبي – وأنت تسرد لي بعض المواقف التي أثرت في حياتك – جاوبته في خجل "نعم"، وأنا لا أعلم ما هي الخدمـة التـي ممكن أساعده فيها ثم في مساء ذات اليوم زارك الدكتور راغب في مسكنك ودون أن يشعرك بشيء ..حضر معك درس مدارس الأحد وبهذه السهولة اندمجت في مجال الخدمة وما هي إلا سنوات عـدة وإذا بك مؤتمن على أمانة خدمة مدارس الأحد في المدينة كلها.

تغيرت الأحوال وسافر الدكتور راغب إلى الأقصر وقضى بها سنيين كثيرة يخدم المسيح ويتلمذ للرب كثيرين ثم عاد إلى القاهرة، وكنت قد أصبحت كاهناً وكانت تربطك به محبـة خالصـة لذيـذة

مملوءة من العاطفة الروحية .. كان الدكتور راغب يجللك ويحبك ويلتمس البركة من يديك وكنت في اتضاعك وخجلك تُقبّله قُبلة المحبة الخالصة وترى فيه أخاً حبيباً بل والداً في الروح وكنت حسبما تسمح ظروفه ووقته تدعوه إلى الكنيسة لكي يتمتع أولادك بهذا الينبوع الطيب من الحب الصافي للكنيسة وبناء النفس على أساس الرسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية.

كان لقاؤك مع الدكتور راغب حوالي سنة 1950 قبل تخرجك من كلية العلوم سنة 1951 وصار لك أحباء في الخدمة الأستاذ وديع " أبونا إيليا المتوحد " والأستاذ محفوظ أندراوس. وفي سنة 1954 قَدُم إلى الإسكندرية أبونا متى المسكين حين عينه البابا يوساب الثاني وكيلاً له في الإسكندرية .. تعرفت عليه أنت وزميل لك كان يعمل مهندساً (ترهب فيما بعد بِاسم الراهب موسى ثم صار أسقفاً على دمياط بِاسم الأنبا أندراوس) .. ووجدتما في أبونا متى باكورة الرهبنة في الجيل الحاضر من الشباب الذي رغب في التكريس وأحب حياة التأمل وبدء نبش الآبار القديمة والتعرف على كنوز الكنيسة وغناها وعمق إيمانها وأقوال الآباء فيها وتدبيرها النازل من السماء.

قضى أبونا متى في الإسكندرية ثلاث سنوات ونصف كانت بالنسبة لك كأساس البناء وقد ارتبطت به كأب روحاني بإخلاصك وانفتاح نفسك، وقد نما في قلبك في ذلك الوقت حبك للتكريس والحياة الفضلى .. وكنت تهيئ نفسك للانطلاق من هذا العالم ولمَّا

ترك أبونا متى دير السريان وسكن في صحراء العامرية في منزل استأجره لنفسه سنة 1958، كانت والدتك الحنون (نيح الله نفسها) تعمل بعض الأطعمة فتحملها كل يوم على (الفسبا) وتذهب إلى العامرية على بعد 32 كم. وكان أبونا متى يرى في ذلك محبة نادرة الوجود ويحاول أن يخفف عليك، وألح مرات ألا تحضر إليه الأطعمة ولا تحضر كل يوم ولكن حبك وفرحك بخدمة المسيح كان أكثر من الأتعاب والمشقة. وكانت تعزيتك بالروح بسبب كلام النعمة ينسيك أتعاب الجسد فلم تحسب لها حساباً.

وقد ظل ارتباطك وحبك بأبونا متى المسكين في الروح حتى آخر أيامك.. وأذكر أن أبونا متى الذي كان يتابع أحوالك باهتمام بالغ في أيام مرضك الأخير بعدما عدنا من لندن أرسل إليك أثنين من أحبائك وأولادك من الآباء الرهبان أحدهما كان طبيباً (أبونا لوقا المقاري) والآخر كان خادماً في كنيستنا قبل الرهبنة (أبونا جبرائيل المقاري) وقد أقاما مدة مقيمان معك في المنزل يشرفان على علاجك وطعامك وراحتك وكانا لك سبب تعزية وفرح في مرضك.

وقد رأى أولادك المقربين منك، والملتصقين بك، رأوا فيك كمال المحبة والحكمة والأصالة الروحية فقد أخذت من الجميع وتعلمت من الكل ولكن ظلت شخصيتك الفريدة كما هي فلم تقلد أحداً ولم تتحيز لأحد ولم تكن ضيق الفكر، بل في اتساعك كنت تجمع رحيق الحياة الروحية من كل ما هو جليل وطاهر من أنواع

الأطعمة المختلفة وحين تهضمها تخرج شيئاً جديداً متميزاً بشخصك وحبك واختبارك للمسيح الذي لا نهاية له ولا حدود لحبه.

جلسنا مرة مع أبينا الحبيب البابا شنوده الثالث وأبونا تادرس وأنا، وكنت أضحك مع أبونا تادرس أعاكسه بمحبتنا المعهودة، وإذا البابا يقول "منظر جميل هذا الذي أراه أمامي .. كيف أن كهنة زملاء تربطهم هذه المحبة" .. تأثرت للقول غاية التأثر أشفقت على سيدنا الذي كثيراً ما يرى مواقف عكس ذلك ناهيك عن المشاكل والمشاحنات والشكاوي فقلت له "يا سيدنا أطال الله في عمرك فإن الفضل يرجع لأبينا بيشوى كامل الذي سقانا هذا الحب وجعلنا نعيش أيام السماء على الأرض.. فهو الذي زرع هذا في حياتنا التي عشناها معاً .."

لم يكن أحداً من ثلاثتنا ليقول إن شيئاً له بل كان عندنا كل شيء للكل فصرنا رغم ضعفنا نتمتع بهذه الشركة الحلوة ولم يحدث في يوم من الأيام أننا جلسنا لنتحاسب في الأمور المادية .. فأنا أطلب من أبونا بيشوى أو أبونا تادرس ما أطلب وآخذ ما آخذ بدون حساب، وكل ما أملك هو للخدمة مشاع.. وأحياناً كان أبونا بيشوى يسأل إذا كان في حوزتي بعض الجنيهات فكان يأخذها .. حتى ملابس الخدمة كنا نلبسها دون أن يخطر على البال أهذه ملابسي أو ملابس أبونا..؟ ولعل العامل الوحيد الذي كان يميز ملابس أبونا بيشوى أنه كان أقصرنا قامة من نحو الطول الجسدي وإن كان أعلانا قامة في الروح.

أذكر واقعة طريفة حدثت سنة 1968 في أيامها كانت مبـــاني الكنيسة وعمارتها قائمة وكان فناء الكنيسة مليء بالطوب والأسمنت والجير، كان يوم أحد وإذ انتهينا من خدمة القداس الإلهي ومقابلات الناس.. رجعت إلى الهيكل ولبست الفاروجية ونزلت إلى فناء الكنيســة وكنت واقفاً مع بعض الأحباء.. بعدها بقليل نزل أبونا بيشوى وسلّم على الواقفين ثم رأيته بدعابة ظريفة يلف حول نفسه وهــو لابــس فاروجية طويلة وأذيالها تكنس الجير في الأرض.. وتعجبت من هذا الفعل وقلت له مع الحاضرين "حصل أيه؟.. ماذا تفعل؟" قال ضاحكاً "عاوز أعلّم واحد أنه لا يلبس ملابس غيره".. نظرت إلـــى نفســـي وإذا الفاروجية التي ألبسها قصيرة جداً.. تداركت الأمر وبســـرعة أمسكته وخلعت فاروجيته التي كنت ألبسها وخلعت عنه فـــاروجيتي ورحت أنظفها مما لصق بها من الجير. هكذا كانت الألفة والحـــب بلا حدود.. كان مفتاح بيتي مع أبونا بيشوى لأنه بيته يدخل إليه في أي وقت.. ومرات كنت أرجع إلى البيت أثناء النهار فأجده نائماً في حجرة من حجرات البيت.. بساطة ونقاوة وحب لا يُعبر عنه.

فكرنا في يوم من الأيام أن نسكن ثلاثتنا أبونا بيشوى، أبونا تادرس وأنا في منزل واحد وكنا نقول لماذا نضيع الوقت وبعضنا بعيداً عن البعض وتمنينا أن نكون دائماً مع بعض ونرجع في آخر النهار لنكون فـــي بيت واحد نصلي معاً ونتدارس أمور الخدمة معاً.. كانت المحبة التي تربطنا كأنها خيال أو قل أنها غريبة عن هذا العالم وهى كذلك بالحقيقة.

الكتـاب المقـدس والإيمـان

كنت يا أبي مشغولاً بالإنجيل شغوفاً وعطشاناً إليه كل النهار وكل الليل .. لم يفارق إنجيلك قلبك ولا عقلك، أخذته مأخـذ الجـد لا للجدل ولا للمحفوظات ولا للوعظ والتأويل.. بل الحيـاة وحـين سلمته لأولادك سلمته معاشاً حقاً.. فأحب أولادك الإنجيل وأقبلـوا عليه للشبع والحياة وحرصوا أن يسمعوه مفسراً بحلاوة من فمـك بالنعمة المعطاة لك.

قبل أن ترسم كاهناً في أواخر الخمسينات كانت هناك قلاقـل بسبب خلو الكرسي البطريركي ورسامة بطريرك جديد وذلك بعـد نياحة البابا يوساب وكنت أحد الشبان البارزين في سماء الكنيسة.

استدعوك في المباحث العامة ولم يكن لك سابق عهـد بهـذا الأمر وكان الذهاب إلى هذا المكان مخيف ومجهـول المصـير.. ذهبت إلى هناك ثم جعلوك تنتظر عدة ساعات ثم جلس معك أحـد الضباط وأمامه ملف فيه كل المعلومـات عنـك وعـن عائلتـك وعملك.. وظل يسألك بعض الوقت.. عـن الكنيسـة واتجاهـات الشباب نحو البطريرك الجديد.. ثم صرفك لحال سبيلك، قلت لـي يومها: "قلت لنفسي حتى لو احتجزوني أو سجنوني مـا دام معـي إنجيلي فسأكون سعيداً جداً".

كان كل الكتاب حلواً مشبعاً لك بعهديه القديم والجديد ولكن كان سفر الخروج يشغلك بالأكثر فقد كنت كلما دخلت إليك أجد الكتاب المقدس مفتوح على سفر الخروج وكنت أضحك معك وأقول: "مش ها تخرج من سفر الخروج؟". كان أمامك كالبحر العظيم المملوء بالأسرار. سر الخلاص وسر العبور بالدم وسر الحياة في البرية وسر المن النازل من السماء وسر الصخرة التي أفاضت الماء أسرار وأسرار.

كنت مغرماً بموسى رئيس الأنبياء وقد تتلمذت عليه بالحق حين جلست تتعلم الحكمة والحُلم الذي تحلى به ومن كثرة انشغالك بسفر الخروج انطبعت ملامح الرعاية والقيادة التي في رئيس الأنبياء في تصرفاتك ومظاهر عطفك وحبك لقطيع المسيح.. ثم كلمات الشريعة المنقوشة على لوحي الحجر تحولت فيك إلى كلمات الحياة الأبدية، كتبت على ثنايا قلبك بأصبع الروح القدس .. فنطق لسانك بالعجب وإذا كان موسى وضع برقعاً لأن بني إسرائيل لم يقدروا أن ينظروا إلى مجد وجهه الزائل، فإن النعمة جعلت وجهك مشرقاً بالفرح فأحب شعبك النظر إلى وجهك إذ رأوا نعمة الله حالة عليك.

الأســرار الكنسية

أما ممارسة الأسرار فقد وقاك الله من الوقــوع فــي دائــرة الروتين القاتل الذي قد يصيب الكاهن بسبب التكرار في القداســات والصلوات الطقسية.

فالقداس حي في كل كلمة وكل حركة.

والذبيحة المقدسة ناطقة سمائية.

والألحان تسبيح بلا عجب.

ووقوفك أمام المذبح مهوب، والآية التي جعلتها وكتبتها أمامك على المذبح هى قول صموئيل النبي: "أما أنا فحاشا لي أن أخطــئ إلى الرب وأكف عن الصلاة من أجلكم" (1صم12). ومن حــرارة روحك كنت حين تصلي القداس الإلهي كــان جســدك الضــعيف يستجيب منفعلاً بحركات تلقائية تشعر الجميع أنك تصلي للرب بكل قلبك وفكرك وجميع حواسك متجمعة، وصدق القول الذي نقوله أننا عندما نقف في الهيكل المقدس نحسب كأننا في السماء.

والأعياد البهجة في كنيستنا كم ترجمت فرح الروح فيها إلــى واقع ملموس فامتلأ الكل فرحاً وبهجة وسروراً. ويكفي للدلالة على ذلك وقوفك أمام أولاد مدارس الأحد الذين كــانوا يجتمعــون فــي الكنيسة صباح يوم العيد بأعداد كبيرة قد يصل إلى ألف طفل مــع بعض الأهالي وكنت بقدرة عجيبة تستطيع أن تجذب انتباه هذا الكم

من الأولاد وأنت تحكي لهم حكاية العيد بطريقة فريـــدة وكلمـــات بسيطة تحمل كل العمق وكل الإيمان. وكنت في مرات أقـــول لـــك أرجوك عظ الكبار في الكنيسة كمثل ما تُعلِّم الأولاد بهذا الأســـلوب العذب اللذيذ لأن كثير من الآباء والأمهات كانوا يتـــأثرون غايـــة التأثر وهم يصحبون أولادهم في يوم العيد.. بل وكثيـــرون كـــانوا يحرصون أن يحضروا خصيصاً لهذا الغرض.

يوم 7 هاتور ــ 16 نوفمبر 1968

بعدما كمل الرب عمله معنا وانتهت مباني كنيستنا – كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس باسبورتنج – طلبنا إلى البابا المتنيح الأنبا كيرلس السادس تدشين الكنيسة، فوعدنا أن يتم التدشين بهذا التاريخ الذي هو تذكار تدشين أول كنيسة على اسم القديس مارجرجس الروماني في اللد بفلسطين.. ففرحنا بذلك وكان في تلك السنة يوافق يوم الأحد 16 من نوفمبر.

يومها أرسل البابا إلينا صاحب الذكر الطاهر نيافة الأنبا مكسيموس أسقف القليوبية وكان نيح الله نفسه رجلاً روحانياً وديعاً ناسكاً. ورغم كثرة علمه إلا أنه كان أكثر الناس بساطة وتواضعاً.. بدأنا تسبحة عشية في الثالثة ظهراً من يوم السبت ثم حضر الأب الأسقف ومن سمحت له ظروفه من الآباء الكهنة وشعب لا يعد من الكثرة، وبعد العشية بدأت صلوات التكريس وقد كان أحد كبار الشمامسة المتنيح حنا ملك خبيراً بما يقال في صلوات التكريس مع الألحان الكبيرة وقد جهزنا بحسب الطقس سبعة أجران ماء ونباتات خضراء وورود وشموع، وظلت الصلوات والألحان حتى مطلع الفجر، وكم أحست كل نفس بالكنيسة أنها دلفت أبواب السماء في تلك الليلة.. شيء لا يمكن وصفه، وبعد ما انتهت الصلوات كرّس المذبح المقدس بالميرون وهكذا أواني

المذبح الجديدة والأيقونات والشورية واللفائف وكل ما في المذبح ثم عاد وكرّس بالزوفا والماء المقدّس أبواب البِيعة وشبابيكها وحوائطها ثم صعد إلى سقف الكنيسة ورشه بالماء المقدس لم يترك جزء من الكنيسة إلا وكرسه وقدسه، وقال: " قد صارت الكنيسة بكاملها قدس للرب، كل من يدخل أبوابها يتقدس وكل من يلمس أبوابها يتقدس وكل من يتقدم للخدمة في المذبح يكون كمن يخدم الأقداس العليا."

دخلت الكنيسة كلها في ملكية الله وختمها بخاتم روحه القدوس فمن يلمس أحد أيقونه في الكنيسة وهى مكرسة، أو يكرّم الأيقونة بإيقاد شمعة أو يرفع بخوراً أمامها فهو يكرم قديس الأيقونة ويمجد الله حقاً في قديسيه.

ثم إذ انتهت الصلوات اصطحب أبونا بيشوى نيافة الأنبا مكسيموس في سيارته ليوصله إلى المرقسية لكي يستريح ساعة من الزمن ليعود إلى الكنيسة لصلاة القداس الإلهي في الثامنة صباحاً. وفي طريق عودة أبونا بيشوى إذا بالسيارة تتوقف عن السير فجأة.. والوقت فجراً حوالي الساعة الخامسة صباحاً ولا يوجد من يقدم مساعدة، نظر أبونا إلى عداد البنزين وإذا العربة قد فرغ منها البنزين ولكن تدبير الله له كان عجيباً فقد تعطلت السيارة أمام محطة البنزين.. كم شكر الله أحس أن الرب لم يرد أن يعكر الفرح الذي عاشه ويعيشه بشيء بسيط مثل ذلك فملأ العربة بالبنزين

وانطلق. ثم بعد ساعتين عاد وأحضر نيافة الأنبا مكسيموس لصلاة القداس الإلهي.

وفي القداس وقف أبونا بيشوى ليعظ ويا للجلال والرهبة كأنها صلاة سليمان في تدشين الهيكل.. وقد حول أنظار وأرواح شعبه إلى البيت الذي بناه الله.. الهيكل الجديد – هيكل الله وروح الله ساكن فيه – إذ صرنا أعضاء في هذا الهيكل الذي تكرس بالميرون– فإن كان تكريس المبنى بهذا البهاء والجلال فكم وكم تكون الحجارة الحية المبنية على أساس الرسل والأنبياء ويسوع نفسه حجر الزاوية، كم تأثر شعبك يا أبي يومها بفيض الروح وكم سكبت دموع توبة ورجوع إلى الله ممتزجة بالفرح الذي لا ينطق به، حقاً كان يوماً من أيام السماء عشناه على الأرض.

الصـلاة والسـهر

لقد أحببت السهر في الصلاة وهو تقليد أبائي ورثته الكنيسة منذ القرون الأولى بل لقد سلمه السيد المسيح لنا في أيام تجسده إذ كان يقضي الليل كله ساهراً في الصلاة لله كطقس البنوة المؤهلة لعشرة الآب والوجود معه في كل حين. هذا غرسه المسيح في جسم بشريتنا حين أدخلنا إلى مجد البنوة وميراثه الأبدي.

وهكذا الرسل الأطهار حتى في سجونهم كانوا في نصف الليل يسبّحون، لقد حولوا الأرض سماء وظلمة الليل أضاءت بتسبيحهم عوضاً مما يرتكبه العالم من الشرور في ستار الظلام كأبناء للظلمة، أما أبناء النور فقد غلبوا الظلمة بقيامة الذي أنار لنا الحياة والخلود.

ففي المناسبات التي تسهر فيها الكنيسة كرمت السهر بغير فتور في ليالي كيهك وفي ليلة أبوغالمسيس بل وفي عيد النيروز بعد الاحتفال الكبير بجوقة الشهداء كنا نسهر في الصلاة حتى الصباح ونختم السهر بالقداس، وفي أعياد القديسة مريم والشهيد العظيم مارجرجس بل أيضاً في أعياد القديسين خارج الإسكندرية كنا نذهب إلى الفيوم في عيد القديس أنبا ابرام ونسهر في الصلاة حتى الصباح وفي عيد القديس الأنبا بيشوى كنا نذهب لديره العامر ونقضي الليل كله في التسبيح.

لقد صار السهر في الصلاة أحد ملامح خدمتك النشيطة التي لا تعرف الكلل، وكنت تثق أن الصلاة هى وحدها قادرة على عمل المعجزات إذ أن الآباء أقاموا موتى وأخرجوا شياطين وصنعوا قوات ونقلوا الجبال بقوة الصلاة، بل وفي غير المناسبات الكنسية، في رأس السنة الميلادية مثلاً وهي مناسبة غير طقسية ليس لها في قطمارس خدمة الكنيسة ولا طقسها ولا ترتيبها شيء.. ولكن اعتاد الناس عامة أن يسهروا ليستقبلوا عاماً جديداً وهو تقليد غربي انتشر في كل أنحاء العالم.

أذكر أنه في يوم 31 ديسمبر 1964 دَعَيتُ إلى منزلك بعض الخدام والخادمات، كنا لا نزيد على 20 أو 25 فرداً.. وقضينا هذه الليلة في الصلاة ودرس الإنجيل وبعض التسابيح.. ثم ذهبنا سيراً على الأقدام إلى الكنيسة في فجر النهار الجديد الذي هو بداية العام.. حيث صلينا القداس الإلهي، كانت كنيستنا وقتها بناء بسيط بالطوب وسقفها بالإترنيت وبين السقف المضلع والحوائط المستقيمة فتحات كانت تجعل جو الكنيسة في ليالي الشتاء قارس البرودة وكنا يومها عدد قليل ففضّلت لذلك أن نسهر داخل شقتك.. لست أدري هل سبقك أحد في التفكير في السهر في مثل هذه الليلة أم لا؟

وبعدها بسنوات صار الشعب يملأ الكنيسة بل تزدحم الكنيسة، بل وكل الكنائس، وكثيرون أُنقِذوا من شرور كثيرة وشطط كانوا يرتكبونه من شرب ورقص وخلافه لأن الشيطان قنّاص فرص ويحول كل شيء ليخدم غرضه لهلاك النفوس وإبعادهم عن الحق،

ولأن لا طقس لمثل هذه الليلة، فكنا نُسبّح بعض تسابيح كيهك مع دراسة في الإنجيل مع صلاة نصف الليل. وكنتَ ترفع قلبك بالصلاة العميقة تشفع في شعبك وفي الخليقة كلها.. وطوبى لمن تمتع بك مصلياً ورافعاً نفسك وعقلك ومتكلماً بانطلاق الروح مع المسيح الذي أحبك وجعلك راعياً لشعبه وغنم مرعاه.

الأمـاكن المقـدسـة

أما سعيك نحو أماكن القديسين الأبرار في الأديـرة المقدسـة وخشوعك في التماس البركـة مـن آثـارهم وسـيرتهم المقدسـة وأجسادهم فشيء يفوق الخيال، لقد تعلّقت نفسك بكل ما هو طـاهر وكل ما هو جليل وكل شيء له صيت حسن كقول الرسول.

كانت كلما سنحت لك فرصة أن توجـد هنـاك فكنـت بكـل جوارحك وخلجات نفسك تعيش تلك الأيـام أو السـاعات مصـلياً متأملاً مسبحاً وقليل الكلام، وكنت إذ تقود شعبك لمثل هذه الرحلات بنفسك فكانت بالحقيقة سبباً في تغيّر الكثيرين. لم تكـن الـرحلات للترفيه أو لقضاء يوم طيب بل كانت روحية خالصة أذكـر أنـك طوال فترة السفر من الإسكندرية كانت المزامير والتسـابيح فـي الأتوبيس لا تنقطع. ثم قبل أن ينزلوا من الأتوبيس إلى البرية كنت تنبه أذهان شعبك أن البرية مقدسة.. ترابها ورمالها ارتـوت مـن دموع القديسين وجهادهم وسكب أنفسهم محبة في المسيح، وكنـت تلزمهم بالمسير بخشوع وعدم الكلام وهم في طريقهم إلى الدير لئلا يعكروا صفو البرية وهدوئها وكنت تؤكد أن هذه فرصـة للتوبـة والصلاة.. وإذ كنت تصلي القداس بحرارة روحك وتناول شـعبك من الأسرار ترشدهم إلى أن يقضوا باقي اليوم في خلـوة للتأمـل ونوال البركة.

هكذا كان أولادك يرتوون من نبع إرشادك ويرون فيك القدوة للسلوك المنضبط.

كم نحتاج اليوم إلى مثالك الروحي لتوقظ الوعي عند الذين يترددون على الأديرة والأماكن المقدسة بلا إدراك روحي فيحولونها إلى هرج ومرج وأكل وشرب وترفيه بما يتبع ذلك من إزعاج بل والبعض في سلوكهم ولباسهم صاروا عثرة لكثيرين.

في سنة 1965 وقبل أن أُرسم كاهناً.. اصطحبني أبونا بيشوى إلى دير القديس أنبا بيشوى في برية شهيت وقضينا هناك أسبوعاً وحدنا، كان وقتها الدير فقير من جهة الأمور المادية وعدد الرهبان قليل ما بين ثمانية إلى عشرة رهبان بعضهم مسنين ومرضى فتمتعنا بوقت هادئ شبعنا من الإنجيل والتسبيح والصلاة وأذكر أن طوال هذه المدة لم يطرق باب الدير أحد ولم يأتي إليه زائر فكانت البرية غاية في الهدوء والسكون.

وفي ظهر يوم من الأيام كنا جالسين وحدنا في الكنيسة في سكون وكل واحد في يده كتاب يقرأ فيه وإذا بأحد الآباء الشيوخ يدخل إلى الكنيسة ولم يلاحظ وجودنا بل دخل مطمئناً أن أحداً لا يراه سوى ذاك الذي كرس حياته له، دخل وهو يقول بصوت عال: "أما أنا فبكثرة رحمتك ادخل بيتك واسجد قدام هيكل قدسك بخوفك".. ثم سكت متنهداً وقال ثانية: "أما أنا فبكثرة رحمتك ادخل بيتك واسجد قدام هيكل قدسك بخوفك"، ثم كررها

ثالثاً .. بصوت مملوء خشوع وتضرع.. جمدنا في أماكننا ولم نتحرك.

دخل هذا الأب الشيخ متجهاً نحو الهيكل وسجد سجوداً متواتراً.. ثم وقف أمام جسد القديس الأنبا بيشوى وصنع ميطانية وظل متشبثاً بالجسد لبعض الوقت.. وفجأة وبلا مقدمات التفت هذا الأب الشيخ وهو ضعيف البصر وقال: "من هنا؟" فقمنا من الركن الذي كنا جالسين فيه، ورد عليه أبونا بيشوى قائلاً: "أنا أبونا بيشوى يا أبي"، وذهبنا نسلم عليه.. احتضن هذا الأب أبونا بيشوى بمودة روحيه شديدة واتضاع مذهل وقال بدموع: "أرجوك يا أبونا بيشوى أنت حبيب المسيح اطلب لي منه أن يكمل غربتي بسلام.. أرجوك.. أرجوك.."

انسابت دموع أبونا بيشوى بهدوء وهو يقول: "أنا محتاج إلى صلواتك يا أبي.. أنا ضعيف وخاطئ " لقد تعلّق هذا المنظر في ذاكرتي منطبعاً في أعماقي وكلما تذكرته اختلجت النفس بمشاعر يصعب التعبير عنها.

ميزان القلوب

ميزان القلوب هو الاسم الذي أطلقه الآباء على البرية.. بريـــة شيهيت التي فيها اُختبرت مئات الآلاف من القلوب حيث مـــدارس النسك الشديد وأعمال الإماتة ومدارس الصلاة والســـهر ومـــدارس السكون والتأمل والهذيذ في الإلهيات. وقد تخـــرّج منهـــا كواكـــب البرية قديسون وأبرار وأطهار في كل أجيال الكنيسة. وقد أعطـــى الرب آباء كثيرين نعمة الإفراز وكان الآباء يطوّبون الذين أنعم الله عليهم بهذه النعمة حارسة الفضائل.

وأنت يا أبي الحبيب وإن كنت لم تحيا في البرية كراهب، بل ائتمنك الرب على رعاية قطيعه وخدمة النفوس ولكن كانت روحك تنتمي إلى طغمات الآباء الكبار كأنك عايشتهم جميعاً وتتلمذت عليهم وخدمتهم وصببت ماء على أيديهم.

وبسبب طهارة قلبك ونقاوة نفسك فقد وهبـــك الله نفـــس نيـــرة وحكمة مثل دانيال الذي وهو شاب صغير قضـــى قضـــاء الحـــق وخلص الدم البريء – دم سوسنة العفيفـــة – مـــن يـــد الشـــيخين الفاجرين. هكذا كنت يا أبي تعرف كيف تزن القلوب.. فقد وزنـــت بميزان حساس كل نفس وقدرت ظروفها وقدراتها، بل كـــان كـــل واحد يشعر أنك قريب من نفسه جداً وعارف بأحواله.

فمثلاً الأغنياء وأصحاب المراكز مثـــل الـــوزراء أو وكـــلاء

الوزراء والمديرين وأساتذة الجامعة الكبار وأولاد الباشوات.. كل هذه الفئات دخلت ضمن دائرة رعايتك وبحكمة إلهية كنت تقترب إلى كل نفس. وكنت مؤتمناً على أسرارهم ومشكلاتهم وكنت في اتضاعك الشديد تكسب حبهم وثقتهم، وإذ علموا أنك رجل الله كانوا يفتحون لك قلوبهم قبل بيوتهم.

لقد كنت بالنعمة تعرف كيف تدخل إلى أعماق هذه النفوس وكأب حكيم – رغم صغر سنك – كانوا يقدمون لك خضوعاً ويكنون لك احتراماً بالغاً.

اصطحبتني في زيارة بعض هؤلاء.. أذكر على سبيل المثال أننا كنا نزور المستشار فريد الفرعوني وهو رجل وقور صاحب تاريخ كبير، فهو ابن باشا، وكان وقتها رئيس محكمة الاستئناف ووكيل المجلس الملّي السكندري.. ويسكن في قصر فاخر.. وقد ذُهلت يومها من الحفاوة التي قابلوك بها والمحبة ومقدار الدالة التي كانت لك عندهم. وبعد ما نزلنا من عندهم مررنا على الحضرة (وهو حي فقير بالإسكندرية). ودخلنا عند رجل بائع متجول عنده 6 أولاد يسكن في حجرة واحدة.. وقد وجدتك بينهم كأنك واحد منهم فالأولاد وهم في وساخة ملبسهم ومظهرهم احتويتهم في حضنك تقبلهم وتداعبهم وتعلمهم جزءاً من ترنيمة.. والرجل الفقير تناديه عم فلان.

السيدات الكبار في الكنيسة كن كأمهات، الحدثات كن كأخوات بكل طهارة بحسب وصية الرسول. الشبان كانوا فئة مفضلة عندك

إذ رأيت فيهم بالحكمة مستقبل الكنيسة والذين توسمت فيهم ميولاً للخدمة أو التكريس نميتهم وحوطهم بعناية خاصة حتى وجدوا طريقهم. المغتربين نالوا اهتماماً خاصاً وكثيرون منهم تبعوا آثار خطواتك.

وفيما كنت تحنو على الضعفاء والفقراء من الطلبة، كنت تؤدب المعوجين.. كنا في الكنيسة ساهرين في ليلة رأس السنة الميلادية سنة 1975. وبعد نصف الليل جاء أحد الشبان يبكى. كان شاباً بسيطاً يسكن في أحد بيوت الطلبة.. لقد سهر الشبان زملاؤه وأخذوه مادة لضحكهم وتهريجهم ومنهم شاب من القاهرة تطاول عليه بالضرب والإيذاء .. فلمَّا جاء إلينا يبكي وآثار الضرب تبدو عليه.. عزاه أبونا بكلام طيب وقال له: "خليك في الكنيسة صلي إلى الصباح.. وابدأ سنة جديدة".

وكان بعد نهاية السهر اصطحبنا الولد معنا وذهبنا لمناولة بعض المرضى، ثم ذهبنا إلى شقة الطلبة. وكانت الساعة السابعة من صباح اليوم الجديد في السنة، كان الطلبة قد سهروا حتى ساعة متأخرة. مع أن أبونا كان قد مر على هذه الشقة ونبّه على الطلبة أن يحضروا إلى الكنيسة. وقد كان الشاب الطيب يشكو من معاملة الشاب الآخر له وإنه يتطاول عليه.. فتكلم أبونا مع المعتدي ووعظه مرة ومرتين وفي هذه العشية بالذات حذره من أن يعتدي على زميله.. ولكنه لم يعتبر.. فلمَّا دخلنا الشقة، سأل أبونا عن

الشاب المعتدي أين يرقد؟.. ووقف عند سريره.. فاجتذبه أبونا من فراشه إلى الأرض. ففوجئ الشاب واستيقظ واقفاً. فقال أبونا: "أنا نبهتك مرات".. وضربه على وجهه ثلاث أو أربع مرات في لمح البصر بحزم الأبوة ومهابتها وتأديبها. ذُهل الولد وصمت.. فقال أبونا: "أين كتبك وأين ملابسك وكل ما لك؟ احملها الآن واخرج خارج البيت. ليس لك هنا إقامة لأنك لم تحفظ الأمانة ولأنك كررت الاعتداء على الضعيف".. وصار خوف في البيت كله.

وبعد ما خرجنا، قال لي: "أنا متأسف جداً وحزين، أنه لم تكن وسيلة أخرى مع هذا الولد العنيف.. ولكي يعيش الضعيف غير مهدد.. وهذا الولد العنيف جعل الصلاة في البيت أو قراءة الإنجيل شبه مستحيلة.. هو غلبان لأنه جاي من بيئة تعبانة".

ذهبنا إلى الكنيسة وقال أبونا لنظمي: (الشماس المكرس بالكنيسة) "يا نظمي الولد ده ليس له مكان.. وأنا طردته من البيت خذه مع حاجاته ووديه يسكن عند فلان في الشارع الفلاني.. وهو غلبان ادفع له أجرة الشهر".. فبحكمة وحزم وحنان في ذات الوقت تصرف أبونا.. ثم أولاه عناية خاصة .. وخدمة فردية.. ولم تمضي بضعة شهور إلا وهذا الشاب متغير الطباع متغير الأخلاق مواظب على الكنيسة باتضاع عجيب.

وفي السنة الثانية كان يخدم في فصول مدارس الأحد بفرح شديد وطاقة، لقد تحول تماماً وصار نافعاً في كل شيء.

* عرفت أن الميزان الذي كنت تزن به القلوب كان حقاً، كنت تقول لي مثلاً عن أختين فلانة دي قلبها في العالم رغم أنها خادمة مواظبة، وأختها تقول عنها دي قلبها خالص لربنا.. ثم مرت الأيام وعشرات السنين واكتشفت صدق حكمك ونظرتك العجيبة وتقديرك للنفوس. وعن أخرى تقول لي فلانة دي ها يخدوها الملائكة من أيديها ورجليها ويحدفوها في الملكوت حدف. ولمَّا مرت الأيام وجاءت التجارب على هذه النفس وضح صدق كلامك من جهتها، أنها حائزة على قلب غفور لا تحمل ضغينة ونفس بسيطة بساطة الأطفال لم تتسخ بالعالم ولم تغيرها المتغيرات.
* أرسلت إليك وأنا في لوس أنجلوس أستشيرك في بعض الأشخاص وآخذ رأيك لأنني فكرت في رسامة أحدهم كاهناً على الكنيسة، وأرسلت لي الرد.. وقد وزنت كل نفس منهم وقدرتها بحسب الروح الذي فيك، وقلت لي كلهم أحبائي وفيهم فضائل ولكن من جهة الخدمة.. فلان عصبي.. وفلان متمسك برأيه أما فلان فرجل بسيط وخائف الله.

وهذه عبارتك المشهورة "كلهم أولادك وأنا خادم أولادك وأنت أرسلتني لكي اخدم أولادك.. فيهم أبرار وفيهم خطاة.. ولكنني خادم لأولادك ولست ديّاناً لهم". لقد عرفت قدر كل واحد أحببت كل واحد وخدمت كل واحد، ما أحلى منهجك وما أحكم أسلوبك لقد علمك الروح كيف تعامل المخدومين وتصل بهم إلى ميناء الخلاص.

لئلا تعاق صلواتكم

وصية القديس بطرس الرسول للذين يعيشون في الزيجة وصية غالية تحتاج إلى روح عالية للتنفيذ والحياة.

الوصية تقول للرجال المتزوجين "كونوا ساكنين مع الإناء النسائي بحسب الفطنة كالأضعف معطيهن إياهن كرامة كالوارثات أيضاً معكم نعمة الحياة لئلا تعاق صلواتكم بأي نوع"

فالأمر يحتاج أولاً: حكمة روحية.

ثانياً: معرفة أن النساء آنية ضعيفة.

ثالثاً: أنهن مستحقات للكرامة.

رابعاً: أنهن وارثات الحياة الأبدية.

فإن لم يدرك الإنسان بالروح هذه الأبعاد يقع في فخاخ ومتاهات تغرق النفس وتهدم الكيان ولا يستطيع أن يصلي، لأن الخلافات ستعيق الصلوات وتعطل الجهاد الروحي.

واقعة طريفة أقُصها وهي ذات دلالات نافعة للتعليم كدرس عملي من واقع الحياة.

رأيتك يا أبي في صباح يوم الأحد وكان يبدو عليك الإرهاق.. قلت لك بعد القداس: "ماذا بك؟" قلت: "رجعت إلى المنزل متأخراً بعد الاعترافات وبعض الزيارات، وجدت أنجيل مش مبسوطة"! قلت "لماذا؟" أجابني: "كانت طلبت مني شيء وأنا نسيت في

الزحمة"، قلت: "وبعدين". أجبتني": سألتها عن حاجة، أجابت وهي مقطبة الوجه.. قلت: "يا ربي كيف أصالحها وأعيد لها سلامها؟ والوقت متأخر ولا أستطيع أن أصلي غداً القداس وهي زعلانة"، فسألتها بجدية: "يا أنجيل أنتِ صليتي التسبحة؟"، فأجابت بالنفي.. قلت لها:" هاتي الأبصلمودية وتعالي نصلي التسبحة"، تحاملت على نفسي وجسدي منهك.. ولكن أقول لك الحقيقة أنني تعزيت وحصلت على معونة، ولمَّا أكملنا التسبحة وجدتها منشرحة كعادتها وكأن شيئاً لم يكن.. وهكذا كان فنمت قرب الفجر ولذلك أنا مرهق.

هذا هو مسلك الروحيين يا رابح النفوس وهذه هي حياة القديسين.. فإن كان خلاف مهما كان تافهاً فهناك مخدع الصلاة ووقفة التسبيح.

وهذه هي الحكمة النازلة من فوق تريح التعابى وتقيل العثرة وتعيد السلام المستمد من ملك السلام، وهكذا عشت يا أبي مثالاً للفطنة الروحية وإعطاء الكرامة لشريكة حياتك وكنت معها مثالاً للروح العالي.

وهكذا كنت تقول يجب أن ندرك هذه الحكمة للكسب لا بإقناع العقل بل بفعل المحبة واللطف المسيحي الذي هو من ثمار الروح المقدس، وأن المحبة لا تسقط أبداً.

الـخـدمـة المـملوءة سـراً

الكنيسة بكل ما فيها مبناها ومعناها كانت هـي حياتـك فيهـا عشت كل لحظة من لحظات عمرك على الأرض.. حب وعشق فما كنت تمل من وجودك فيها فهى مسكن مجد الله وجدت فيها راحتك كمثل العصفور كما قال المزمور، الهيكل والمذبح كنت تقـف فيـه وأمامه برهبة ووقار لم يدخل الروتين إلى حياتك بسـبب وعيـك المستمر وصحوك.

فالقداس دائماً أبداً جديد لا يأتي عليه القدم وكلماته رغم أنهـا محفوظة ولكنك كنت تصليها كما لأول مرة بروح وقوة.. تضـغط على بعض الكلمات كأنك تريد للذين يصلون معك أن يتعلقوا بها أو يعلقوا حياتهم عليها أو ينالون ما نلت منها وبواسطتها.. وخشوعك ساعة تقسيم الأسرار، وتناولك منها يبكّت الذين تعودوا على التناول دون كامل إدراك لمن هم قيام أمامه، أو عظمة السر الذي يزمعون أن يتناولوه كقول القديس يوحنا ذهبي الفم.

أذكر يوماً أننا صلينا قداس خميس العهد، وكان يومها زحـام شديد بالكنيسة وكنت تناول الجسد المقدس ولم يكن لنا عادة أن نقسم الجسد.. بل ناولت وحدك الرجال ثم السيدات وكنت أنا أوزع الـدم الزكي.. وقد أخذ التناول ما يزيد على 70 أو 80 دقيقـة.. وكـان يبدو عليك الإجهاد الشديد، وبعدما انتهينا.. وعدنا إلى البصخة فـي

حوالي الخامسة قلت لي: "تصوّر أنني كاد أن يغمى عليَّ أثناء التناول.. حسيت أن روحي راحت مني".. كم أشفقت عليك أحسست بوجع قلبي لمَّا قلت لي ذلك.. ثم استطردت تقول: "ولكني قلت يا ربي يسوع امسكني.. ثم تشبثت بالجسد الإلهي الذي في يدي.. فأحسست بقوة غير عادية تسري في كياني".. فعرفت من يومها كيف كنت صاحب أسرار، وأنك تتعامل مع الذبيحة المقدسة بطريقة يندر أن يدركها أحد.. فهي ذبيحة حية بالحقيقة.. وكنت - دون أن يدرك أحد ما بداخلك – كنت ترفع قلوب شعبك وأنت تصرخ بالاعتراف الأخير بكل قوة وبطريقة فريدة حين تقول: "أمين.. أمين.. أؤمن ..أؤمن واعترف إلى النفس الأخير أن هذا هو الجسد المحي.."

نعم لقد تجاوزت بروحك ما هو مرئي وملموس من أعراض المادة إلى الجوهر الحقيقي وسر الله.

طوباك يا من كشفت النعمة عن عينيك فرأيت ما لا يرى.

وقد ذكّرني هذا بالمتنيح أبينا ميخائيل إبراهيم عندما كان يزورني في منزلي بالإسكندرية وكنا نتكلم عن القداس الإلهي والأسرار وسألته قائلاً: "يا أبي ماذا أفعل؟ فأنني في أحيان كثيرة يتشتت فكري أثناء القداس وتشغلني أمور واهتمامات".. فأجابني قائلاً باتضاع: " خيبتك زي خيبتي.. أنا النهاردة كنت بأصلي القداس ورأيت الشمعة في الشمعدان بجوار المذبح بتلتهب وساحت

وتكاد تسقط، فشاورت للشماس أن يصلحها.. وانشغلت عن الذبيحة التي في يدي وكان المفروض أقول للمسيح اللي أنا شـــايله وهـــو ضابط الكل.."

فتعجبت من مسلك هذا البار وفكره العالي والبســيط فـــي آن واحد، وعلمت أن الآباء القديسين في صلواتهم وممارستهم للأسرار كانت أرواحهم تحلق في آفاق أخرى، فالقداس ليس طقـــس يكمـــل وصلوات محفوظة وألحان تضبط.. ولكنه هو حضور المسيح، وهم في حضرته لا ينشغلون إلا بشخصه المبارك.

كـورة الأحـياء

قد تكون الجنازات في حياة الكاهن عبئاً من أثقل الأعباء مـن جهة أنه يودع أحباء، ومن جهة أخرى أنه يرى أحباء في أحزان.. والكاهن الروحي شريك لأولاده بالحق في كل ما يجوزونـه مـن أتعاب أو أحزان.

وقد تكون عند البعض الآخر.. مجرد واجبات ومجـاملات.. ومن كثرتها تتحول إلى روتين وهنا يفقد الإنسان العواطف النبيلـة التي تنم عن صدق المحبة.

وعند البعض الآخر.. فإن الجنازات مجال للكـلام والـوعظ المحفوظ المعاد والمزاد.. ولكنك يا أبي رغم أنك ودعت آلاف من شعبك على مدي سني خدمتك.. فلم تكن أبداً مجـاملاً ولا واعظـاً تقليدياً.. بل لقد عبرت بشعبك فوق أوجاع الموت.. وتكلّمت بصدق عن الحياة في المسيح القائم غالب الموت.

وكنت تزف أولادك الذين أكملوا سعيهم بدمع العين ولكن بثقة الإيمان ويقين الرجاء في القيامة، وكلماتك في الجنازات كانت أبلـغ ما نطقت به شفتاك.. لأنك كارز بالقيامة ولم تكن تتبع الموتى الذين يدفنون موتاهم، بل من العجيب أن كثيراً ما كنت تذهب في ساعات اختلاء إلى المدافن، وتسير بين القبور ساعات.. وهذا هـو تـدبير القديسين وتدريبهم حينما عرفوا كيف يموتون عن العالم بـإرادتهم

فلم يعد المدح من الناس يطربهم أو يطغيهم ولا المذمة والصيت الرديء يؤذيهم وقد أماتوا الشهوات وقتلوا الأهواء. فعرفوا المعنى الحقيقي للموت، واستهزأوا بموت الجسد لأن الرب القائم كسر شوكته.

وفيما أنت تودّع الآباء الكهنة الذين رقدوا على رجاء القيامة، كانت مشاعرك نحوهم لا توصف دموعك تجري بهدوء، وكنت تنظر نحو الشعب وتقول أن شعبنا القبطي شعب وفي للذين يخدمونه.

وقد رأيتك في أواخر سنة 1967 وأنت تنحني على جسد أبونا أثناسيوس كاهن كنيسة مارمينا (فلمنج بالإسكندرية) في ذلك الحين وهو على فراش الموت تحتضنه وتقبّله بجلال وتقول لي: "هذا الرجل بار لقد عشت معه أربعين يوماً في دير السريان بعد رسامتي وكان البابا كيرلس أوكل إليه تسليمي القداس.. حقاً أنه رجل بار وقديس، كان صاحب صوت كنسي معزي.. وكان عندما يقول أجيوس وهو يسلمنا القداس ينظر إلى فوق ويقول بص كده حتى ورق الشجر يسجد عندما نقول أجيوس".

* وفي انتقال أحد أحبائك من الأساقفة وهو المتنيح الأنبا أندراوس أسقف دمياط السابق وهو زميل شبابك وخدمتك كان تأثرك البالغ يذيب النفس ورغم ما ذرفت من دموع ولكن كنت متهلل أنه أكمل جهاده وانطلق بعد أن ختم سعيه بإكليل مجد.

* أما اليوم المشهود الذي انتقل فيه البابا كيرلس إلى الأخدار السمائية.. فقد كان يوم 1971/3/9 يوم ثلاثاء وكنا حوالي

الساعة 11.30 صباحاً في الهيكل معاً نصلي مزامير السواعي قبل القداس، لأنه كان من أيام الصوم الكبير، ثم جاء إلينا أحد الأخوة وهو منزعج وقال لنا هذا الخبر الصعب. لم استطع يومها أن أكمل الصلاة ، واستأذنتك لأني لم أستطع أن اتمالك نفسي.. وذهبت إلى البطريركية حيث كان المتنيح أبونا مينا آفا مينا وكيلاً للبطريركية.

وجلسنا نبكي حتى انتهيت أنت من القداس وجئت إلينا.. وقلت لي: "ربنا يسامحني، في حياتي ما صليت القداس وأنا هكذا." وركبنا سيارة أبونا مينا آفا مينا، أنت وعم حنا شقيق البابا والمهندس ألبير نوار وأنا، وذهبنا إلى القاهرة وهناك كان المنظر الجليل البابا القديس وقد انطلق إلى السماء.. انحنيت عليه تبكي وتقبل يديه بإكرام جزيل وتقول "طوباك طوباك.. صلي عني.. أشفع فيَّ"، وظللنا بالحجرة نصلي المزامير والتسبحة حتى قارب الصباح.. وقرب الصباح ألبسنا البابا ملابسه الكهنوتية وكنت ساعتها أنظر إليك كابن حقيقي للبابا القديس وهو بين يديك كمثل يوسف المحبوب مع أبيه يعقوب.

لقد انطبعت هذه المناظر في قلبي ونفسي وجعلتني أدرك معنى الإخلاص في المحبة سواء نحو البابا البطريرك أو الأساقفة أو الكهنة أو الشعب الذي أحببته من عمق نفسك وقلبك.

* في يوم نياحة أبونا ميخائيل إبراهيم ذهبنا معاً إلى القاهرة وكنت في غاية التأثر، أليس هو أباك صاحب أسرارك؟ كان أبونا ميخائيل إبراهيم رجلاً بسيطاً وبحسب مقاييس الناس لم يتلق قدراً كبيرا من الدراسة في المدارس.. وكنت أنت يا أبي على الرغم من صغر سنك إلا أنك حزت على شهادات كثيرة ومعرفة غزيرة ولكنك عندما كنت تجلس إلى أب اعترافك فكنت وأنت المملوء حكمة تطرح كل شيء وتنسى كل شيء وما يوصيك به أبونا ميخائيل كنت تنفذه بالحرف الواحد وبأمانة شديدة حتى لو كان الأمر على غير ما ترغب لقد أمت ذاتك ولم تعتد بفكرك ولا اعتمدت على معرفتك بل طرحت كل شيء وحسبته نفاية بالفعل.

ذهبنا إلى كنيسة مارمرقس بمنية السيرج في شبرا والتي كان يخدم بها أبونا ميخائيل ابراهيم وهناك وجدنا جسد أبونا ميخائيل في الصندوق في مواجهة المذبح وبصعوبة شديدة وصلنا إلى داخل الكنيسة من كثرة الزحام لأن الرجل البار كان أباً لجمهور كثير، ثم انحنيت بوقار شديد ودموع غزيرة تودع أباك إلى المجد وتتأمله بعمق وصمت القديسين.

لم تمر عليك مثل هذه الظروف مر الكرام لأنك كنت تتعلم من كل شيء فكم يكون في موقف مثل هذا الموقف.. كانت نفسك منفتحة للروح لكي تدرك كل يوم الذي من أجله أدركك المسيح.

وفي اليوم التالي ذهبنا إلى البطريركية حيث رأس البابا شنوده (أطال الله حياته) صلاة الجناز بحضور عدد كبير من الأساقفة ومئات الكهنة وقد بكى البابا الحنون على هذا الرجل القديس وغلبه التأثر فلم يكمل كلمة الرثاء التي كان يعزي الشعب بها وقال: "أنني طلبت أن يدفن أبونا ميخائيل إبراهيم هنا في البطريركية ليكون سنداً لي".. غاية الحب وغاية الاتضاع وشهادة أب الآباء للكاهن الشيخ القديس.

وفي طريق عودتنا ذكرتني بما حدث منذ سنة أو يزيد .. كنا يومها نجلس في المنزل الملاصق لكنيسة مارمينا بالمندرة بالإسكندرية وهو مِلك الكنيسة ويطل على البحر مباشرة وهذه الكنيسة أنشأتها كنيسة مارمرقس بشبرا وكان الآباء كهنة مارمرقس يحضرون في الصيف ليقضي كل واحد منهم شهراً يخدم في كنسية مارمينا بالإسكندرية، وكان أبونا ميخائيل يحضر كل سنة في يوم أول يونيه وهو عيد دخول المسيح أرض مصر (24 بشنس من كل سنة) .. كان يصلي القداس في مصر القديمة ويسافر إلى الإسكندرية فكنا نزوره ونجلس معه أوقات روحية تحسب كأنها من أوقات السماء على الأرض.. فتمتعنا بنعمة فائقة وخبرة روحية نادرة ذكرتني كما قلت "فاكر لمَّا كنا نجلس مع أبونا ميخائيل.. في ساعة غروب الشمس.. وكنا نصلي معاً.. وبعدما جلسنا نظر أبونا ميخائيل إلى الشمس وهى تغرب وكأنها تغطس في ماء البحر وقال: " أهي الشمس اللي محدش

يستطيع النظر إليها وهى فوق في أعلى السماء في وسط النهـــار لمَّـــا نزلت في مستوانا استطعنا أن ننظر إليها". وكان يـــتكلم أصـــلاً عـــن شمس البر الذي لمَّا نزل إلينا رأيناه بعيوننا وشاهدناه ولمسته أيدينا. ثـــم قال: " أنظر إلى هذا الغروب المهيب!" ثم رفع نظره إلى السماء وقـــال "يارب اجعل غروبنا مهيباً". قلت لي يا أبي: "فاكر هذه الصلاة؟"، قلت: "نعم"، قلت لي: "لقد استجيبت هذه الصلاة فلم أر غروباً أكثر مهابة في حياتي.. حقاً كان غروبه مهيباً"، ولم تتمالك يا أبي نفسك من البكاء.

وقد كرمك الرب أيضاً بغروب أكثر مهابة فقد حـــرك الـــرب مئات الآلاف من محبيك فشاركوا في مهابة غروبك عنا بالجسد.

وكان درس تعاملك مع من سبقوك للمجد أكبر ما تعلمت مـــن جهة الحياة الأبدية ونوال الجعالة ويوم التكليل بعد مشقة العناء فـــي العالم والجهاد ضد الخطية والشهوات العالمية.

لأنك في كل ذلك كنت تسري إليَّ بمشاعرك وكلمـــات نعمـــة وإدراك عالي لكل ما أحاط بنا من ملابسات، وما نعيشه من ألم.

إيمـان واتضاع

في الشهور الأولى لمرضك الأخير وبالتحديد فـي أغسـطس 1976 طلبت إلينا أن نصلي لك صلاة مسحة المرضى.. كان أيامها أبونا تادرس في استراليا وكان أبونا متى باسيلي قد أمضـى فقـط أربعة سنوات في الكهنوت، فصحبت أبونا متى وجئنا إليـك فـي منزلك وصلينا صلاة القنديل.. السبع صلوات بالأناجيل والأواشي.. واشتركت معنا على قدر بسيط في الصلوات وكنت يومها تجوز في شدة من الألم.. ولكن لم يمنعك الألم من الصلاة.. فلمَّا فرغنا مـن الصلاة وقبل الرشم من الزيت المقدس قلت" أنـا عـاوز اعتـرف قبلاً.." خجلت جداً أمام هذا الطلب واعتذرت.. فقال أبونا متى فـي بساطة: "تعترف على مين؟" فأجبت بجدية.. "أياً منكما"، فأنا قلـت: "أستأذن" وخرجت من الحجرة أنا وأنجيل إذ لم يكـن أحـد سـوانا بالمنزل.

وبقى أبونا متى باسيلي وهو في الأصل أحـد أولادك الـذين يدينون لك بالحب والإخلاص وهو يسترشد بك في كـل صـغيرة وكبيرة، ولكن إيمانك بالكهنوت المقدس كان أكبر من هذا الفكر بل وخضوع نفسك واتضاعك الحقيقي لم يمنعك من أن تعترف علـى أحد أولادك ولو كان جديد العهد بالكهنوت.

وقد ذكرني ذلك بقول أحد كبار النساك الكاثوليك (القديس فرنسيس الأسيزي) وهو مؤسس رهبنة الفرنسيسكان.. كان يقول لأولاده من جهة الطاعة والخضوع: أنه مستعد أن يخضع بالكلية وبدون فحص لراهب عمره في الرهبنة يوم واحد إذا أوكل إليه أمر التدبير.

وبعدما انتهيت من الاعتراف ودُهنت بالزيت المقدس وجلست معك.. قلت لي: "لماذا لا نسلك بإيمان وبساطة أليس مكتوب أمريض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة ويصلوا عليه ويدهنوه بزيت.. وإن كان قد فعل خطايا تغفر له.. وأيضاً، اعترفوا بعضكم لبعض بالزلات" قلت له "نعم هذا مكتوب".. فأجبتني "لا بد أن نحيا كل شيء نؤمن به". فلمَّا نزلنا أبونا متى وأنا قال لي: "لقد تعلمنا درساً عملياً في الإيمان والاتضاع بالحقيقة".

أحاسيس القديسين

كُنا مرة في طريقنا إلى البرية لقضاء بعض الأيـــام هنـــاك وكُنـــا طول الطريق نتحدث عن حياة الآباء الكبار مثل القـــديس أبـــو مقـــار الكبير، والقديس يوحنا القصير، والقـــديس يحـــنس كامـــا، والقـــديس بيصاريون.

وكانت تعليقاتك على ما مر في حياتهم شيء غريـــب كأنـــك عايشتهم بالحق وكنت في زمانهم أو كأن روحك اقتربت من تـــدبير فكرهم وأحاسيسهم

فلمَّا تكلمنا عن التجربة التي أصابت القديس أبو مقار في بدايـــة حياته وكيف اتهم ظلماً بالزنى وهو طاهر وبريء واعتـــدى عليـــه بالضرب والإيذاء ولم يدافع عن نفسه بل رضى بالمهانة وقَبل كـــل ما أتى عليه دون أدنى اعتراض.

قلت لي في معرض الحديث: "أنت عارف أبو مقار عمل كـــدة ليه؟".. قلت: "لك صدقني لا أعرف"، فأجبتني أنه قال فـــي نفســـه: "يا واد دي فرصة لا تعوض أنك تصير مثل سيدك وتحتمل أحزان وأنت مظلوم". تعجبـــت لفهمـــك العجيـــب وإحساســـك بـــأرواح الصديقين.. بل عرفت أنك في كثير من الأحيان على قدر ما سلكت مسلكهم كلما سمحت لك النعمة بذلك.

وفي حديثنا عن القديس يوحنا القصير الذي وصل إلى حياة الدهش والصلاة التي ابتلعت كل فكره وكيانه حتى أنه بالجهد كان يجهد فكره أن يحضر القفف للجمّال، الذي طلبها منه مرات وهو يخرج إليه ويسأله ماذا تريد ؟ فيقول له الجمّال احضر لي القفف يا أبي! فيدخل ويغيب، فيعود الجمّال إلى قرع بابه مرة أخرى وهكذا.. فقلت لي: "اعتقد أننا لم نتعلم حتى الآن أن نصلي قط".. لأن الصلاة الحقيقية فعلاً تخطف العقل وتسبي القلب بالحب والبهاء والمجد الذي يغشي النفس بالفعل فيخرج الإنسان من دائرة المحسوسات.

قلت لك: "يا أبي هؤلاء قمم جبال وأين نحن منهم؟" قلت لي: "طبعاً هم لهم حياتهم وجهادهم ودعوتهم ولكن الروح واحد.. فإن كنا في دعوتنا مضطرين إلى الوجود بين الناس واحتياجاتهم ومشاكلهم وتدبير حياتهم في الاعترافات أو الزحمة التي نعيش فيها، ولكن الروح القدس الواحد العامل في الكنيسة كلها هو الذي يشفع فينا بتنهدات لا ينطق بها.. فلا بد أن نجاهد في الصلاة بالروح لنذوق ولو على طرف لساننا ما شبع منه القديسون لأنهم آباؤنا".

أما القديس يحنس كاما العفيف الذي ظللت على خدره كرمة لم يزرعها أحد لأنه غلب الطبيعة واحتفظ بطهارته وقداسة نفسه وجسده، فكنت تقول هذه نعمة ليست في مقدور الإنسان أو بإرادته

أو جهاده، ولكن قبول النعمة والاحتفاظ بها يدلان على اتضاع شديد جداً والاتضاع هو أم جميع الفضائل.

وفي مذكراتك في أيام الأربعين يوماً التي قضيتها بدير السريان العامر بعد سيامتك كاهناً، كتبت بعض الطلبات والصلوات متشفعاً بقديسي البرية وكنت تخص القديس يحنس كاما قائلاً: "يا شفيعي". حقاً كانت نفسك تعرف إحساسات القديسين السرية فإن كانت قرون طويلة فصلت بينك وبينهم بحسب الزمان ولكن روحك اختزلت الزمن وحلّقت فوقه لأن المسيح إله القديسين هو فوق الزمان.

عامل التليفون

قلت لي مرة أنه في السنة الأولى لخدمتك كنت تعمل بكل طاقتك في الخدمة في الصباح الباكر تصلي القداسات وتزور المرضى وتفتقد المتألمين، وترجع إلى منزلك بعد الظهر لتجد قليلاً من الراحة. ربما ساعة أو أقل ثم تقوم تستأنف نشاطك وسعيك حتى ساعة متأخرة من الليل. وكنت تقول لي أنه في السنين الأولى كنت قد وضعت على نفسك شبه تعهد أنك تزور يومياً عشر عائلات على الأقل.

كان العمل مرهقاً لجسدك المرهف ولكن كنت تعمل بالروح. فحمل روحك النشيط المؤازر بروح الله كل وهن الجسد وبدّل ضعفه قوة. وكنت تردد قول الرسول: "أنا بضعف الجسد بشرتكم".

قلت لي: أنك عندما كنت ترجع إلى منزلك بعد الظهر.. كان كثيراً من شعبك يرصدون هذا الوقت، ليضمنوا وجودك في المنزل فكان يطرق بابك كثير منهم ربما لحاجات ملحة أو في بعض الأحيان لأمر غير ذات قيمة. وكثيرون أيضاً يتصلون بك في هذه الساعة بالتليفون لأنهم يعرفون أنك بالمنزل.

فكنت إذ تشعر بالإرهاق الشديد في جسدك تفصل التليفون لكي لا يزعجك أحد لمدة الساعة التي تستريح فيها. وفي يوم من الأيام رجعت وأنت مرهق جداً.. وما كدت تضع جسدك على الفراش

حتى استغرقت في نوم عميق.. ولكنك أفقت على قرعات عنيفة على باب شقتك.. فقمت منزعجاً.. فتحت الباب وجدت عامل التليفون هو الذي يقرع بابك. حيّاك.. فرددت له التحية.. سألك بأدب: "هل التليفون عطلان؟" قلت: "لا". دخل إلى داخل الشقة متجهاً نحو التليفون في الصالة ورفع سلك التليفون ووضع "الفيشة" في مكانها وقال لك وهو يبتسم: "إذا ماكنتش قد الشغلة دي (يقصد الكهنوت) مكنتش تشتغلها". التقطت أذنك الروحية هذه العبارة كأنها من الله.. حقاً كانت حساسيتك لسماع صوت الله مرهفة جداً.

كنت كمثل القديس أنبا أنطونيوس لمَّا رأى امرأة تستحم في ماء الترعة التي كان يقيم بجوارها.. قال لها: "أما تستحي أن تستحمي أمام راهب.. أجابته على الفور.. ليست إقامة الراهب هنا ولكن ليذهب إلى البرية ولا يسكن بين الناس". فقال أنطونيوس: "هذا صوت الله يكلمني من خلال هذه المرأة".

هكذا يا أبي كانت روحك تتلمس طريقها وتميز الإرشاد الذي يأتيها من الله بجميع الطرق المتنوعة. وقلت لي: "من ساعتها لا يمكن أفصل التليفون مهما يكن من أمر. لعل أحد يكون فعلاً في ضيقة أو محتاج إليَّ، فمادمت في البيت فلا بد أن أرد على التليفون".

وظل هذا الأمر حتى آخر يوم لك على الأرض.. وهكذا أعطيت مثالاً للبذل وأنك وضعت نفسك للخدمة مهما كان الجسد ضعيفاً.

خـــتام

كلمة أخيرة أقولها مغبوط هو الجيل الذي عايش مثالك الطاهر ومبارك كل من حظى بحبك وحنانك ورعايتـــك وإرشـــادك، بـــل ومبارك كل من استقى من روحك في صدق العبـــادة والإخـــلاص للمسيح وتذوق كيف يحيا بالروح ويسلك بالروح ويعبـــد بـــالروح والحق.

لقد صدق الذين قالوا إنك مدرسة للفضيلة والإيمـــان بالمســـيح ومعلِّم لطريق الروح.. بل ولازلت فأنت حي في كنيســـة المســـيح تخدم وترشد وتعزي وتشفع.

الرب الإله الذي اقتنى الكنيسة بدم صليبه يجعل سيرتك الحيـــة سبب بركة وسبب خلاص وينعم عليها كما في كل جيل بقديســـين وأطهار يظهرون اسمه ويشهدون لنعمته ضد فجور العالم وإغرائه.

ليكن تذكارك دائماً ولأنك أكرمت الـــرب فـــي حياتـــك فهـــو مُكرِّمك. وعلى قدر ما وضعت ذاتك وخدمت أولاده فإكليلـــك فـــي السماوات من يَصِفُه "فالذين ردوا كثيرين يضيئون كالكواكب إلـــى أبد الدهر".

القس بيشوى كامل يُقبِّل يد البابا كيرلس السادس
عقب الرسامة مباشرةً

القمص بيشوى كامل والقس تادرس يعقوب والقس لوقا سيداروس

المحتويات

المقدمة 7

مقدمة لكتاب "من أثمار الفردوس"

للقمص بيشوى كامل - الجزء السادس 9

مقدمة 13

بذل الذات 16

في الرعاية والتدبير 22

في الإدارة والأمور المالية 25

السعي وراء الخروف الضال 27

صورة مشرفة للكهنوت 33

مع أبونا عبد المسيح الحبشي 35

مارمرقس بلوس أنجلوس 38

يوم انطلاقك 42

أسرار وأسرار 45

صليب اليد 48

من طرائف القصص 51

الرحمة تفتخر في الحكم 54

حنان الأبوة 58

اسم يسوع 60

في أسيوط 61
سر النصرة والغلبة 66
نفوس ضعيفة 71
في الرعاية 73
غير المؤمنين ردهم 75
رابح النفوس حكيم 77
المحبة فلتكن بلا رياء 82
الكتاب المقدس والإيمان 87
الأسرار الكنسية 89
7 هاتور - 16 نوفمبر 91
الصلاة والسهر 94
الأماكن المقدسة 97
ميزان القلوب 100
لئلا تُعاق صلواتكم 105
الخدمة المملوءة سراً 107
كورة الأحياء 110
إيمان واتضاع 116
أحاسيس القديسين 118
عامل التليفون 121
ختام 123